

سُورَةُ الْاِحْقَافِ

مكية وهي خمس وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حَمَّ ١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذَرُوا
مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ .

﴿حَمَّ ١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا
إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴿٢﴾ أي بتقدير أجل مسمى، ينتهي إليه أمر الكل، وهو
يوم القيامة، وهذا يدل أن إله العالم، ما خلق هذا العالم ليبقى مخلداً، بل
إنما خلقه ليكون داراً للعمل، ثم يفنيه ثم يعيده، فيقع الجزاء في الدار
الآخرة ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذَرُوا مُعْرِضُونَ﴾ أي والحال أنهم معرضون عما
خوفوا به، لا يستعدون لحلوله، ولا يتفكرون ولا يتدبرون!

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ
شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنَادِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ﴿٤﴾﴾ .

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ توبيخاً لهم، أي أخبروني ﴿مَا تَدْعُونَ﴾ أي ما تعبدون

﴿ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ من الأصنام ﴿ أَرُونِي ﴾ تأكيد لـ: ﴿ أَرَأَيْتُمْ ﴾ أي أرشدوني وأعلموني ﴿ مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ ﴾؟ أي شركة مع الله ﴿ فِي السَّمَوَاتِ ﴾ أي في خلقها وملكها وتدبيرها؟ فإن البشر بمعزل عن الخلق والتدبير، وإن كانوا من الأحياء العقلاء، فما ظنكم بالجماد؟ ﴿ أَتُؤْتِي بِكُتَابٍ ﴾ تبكيت لهم، أي اثتوني بكتاب سماوي كائن ﴿ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ أي القرآن الناطق بالتوحيد ﴿ أَوْ أَنْزَلْنَا مِنْ عِلْمٍ ﴾ أي بقية من علم من علوم الأولين، شاهدة باستحقاقهم العبادة ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في دعواكم، فإنها لا تكاد تصح، ما لم يقم عليها برهان.

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ ﴾ .

﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ ﴾ إنكارٌ ونفيٌ لأن يكون أحد يساوي المشركين في الضلال، أي هم أضل من كل ضال، حيث تركوا خالقهم السميع، القادر، الخبير، المجيب، إلى عبادة مصنوعهم العاجز، العاري عن السمع، والقدرة، والاستجابة، ﴿ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴾ غاية لنفي الاستجابة، أي لا يستجيبون لهم أبداً ﴿ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ ﴾ أي لا يسمعون ولا يفهمون دعاء العابدين، وفيه تهكم بهم وبعبدتهم ﴿ غَفْلُونَ ﴾ لأنهم إما جمادات، وإما عباد مشتغلون بأحوالهم.

﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ .

﴿ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ ﴾ عند القيامة ﴿ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ أي مكذبين، بلسان الحال، أو المقال، على ما يروى أنه تعالى يحيي الأصنام، فتتبرأ عن عبادتهم أو يراد بهم كل من يعبد من الملائكة، والجن، والإنس وغيرهم.

﴿ وَإِذَا نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيَّنَّتْ قَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ هَذَا سِحْرٌ

مُبِينٌ ﴿٧﴾ .

﴿ وَإِذَا نُنْتَلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيَّنَّتْ ﴾ أي مبيبات للحق، واضحات ظاهرات أنها كلام العزيز الحميد ﴿ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ ﴾ أي قال الكفرة المجرمون عن القرآن المبين ﴿ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ في أول ما جاءهم من غير تدبر ولا تفكير ﴿ هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي هذا سحر واضح، لا شبهة فيه، يسحركم به محمد.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَبَّهُ قُلْ إِنْ أَفَرَيْتُمْ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا

نُفِيضُونَ فِيهِ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٨﴾ .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَبَّهُ ﴾؟ انتقال من شاعتهم السابقة، إلى حكاية ما هو أشنع منها، أي بل يقولون افترى محمد القرآن؟ ﴿ قُلْ إِنْ أَفَرَيْتُمْ ﴾ على الفرض والتقدير ﴿ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ﴾ أي لا تقدر أن تردوا عني عذاب الله، إذ لا ريب في أنه تعالى يعاجلني بالعقوبة، فكيف أجتريء عليه، فأعرض نفسي للعقوبة؟ ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا نُفِيضُونَ فِيهِ ﴾ أي هو جلّ وعلا أعلم بما تخوضون وتندفعون فيه، من القدح في وحي الله، والظعن في آياته ﴿ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ﴾ حيث يشهد لي بالصدق والبلاغ، وعليكم بالجحود والعناد ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ لمن تاب وأناب، وفيه وعد بالغفران والرحمة لهم إن رجعوا عن الكفر والضلال.

﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا

يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ .

﴿ قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ ﴾ البِدْعُ: بمعنى البدع كالخِلِّ بمعنى الخليل، وهو ما لا مثل له، كانوا يقترحون عليه ﷺ آيات عجيبة،

ويسألونه عن المغيبات، عناداً ومكابرة، فأمر ﷺ أن يقول لهم: ما كنت بديعاً من الرسل، قادراً على ما يقدر عليه الله، حتى آتيكم بكل ما تقتربونه، وأخبركم بكل ما تسألون عنه من الغيوب ﴿وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ أي أي شيء يصيبنا فيما يستقبل من الزمان؟ وعن الحسن أن المعنى: لا أدري ما يصير إليه أمري وأمركم في الدنيا، من الحوادث والأحداث الدنيوية، دون ما سيقع في الآخرة، فإن العلم بذلك من وظائف النبوة، وقد ورد به الوحي الناطق، بتفاصيل ما يفعل بالجانبين ﴿إِن أَنْبِئُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ أي ما أفعل إلا اتباع ما يُوحى إليّ ربي، وهو جواب عن اقتراحهم إخبارهم عن المغيبات ﴿وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أنذركم عقاب الله حسبما أوحى إليّ ﴿مُبِينٌ﴾ بين الإنذار، بالمعجزات الباهرة، عن خارجة ابن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: قال ﷺ: «والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي»^(١).

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكُفْرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَنَأْمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّا اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾﴾ .

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ﴾ أي ما يوحى إليّ من القرآن ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ لا سحراً ولا مفترى كما تزعمون ﴿وَكَفَرْتُمْ بِهِ﴾ حال بإضمار «قد» وُسِّطت بين أجزاء الشرط، مسارعةً إلى التسجيل عليهم بالكفر ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي شهد رجل من علماء بني إسرائيل، وهو «عبد الله بن سلام» الواقف على أسرار الوحي، بما أُوتى من التوراة ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِ﴾ أي مثل القرآن من المعاني المنطوية في التوراة، المطابقة لما في القرآن، من

(١) أخرجه البخاري في الجناز ١١٤/٣ ومناسبه أن «عثمان بن مظعون» لما توفي وكُفِّن في أثوابه، قالت أم العلاء: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله، فقال لها النبي ﷺ: وما يدريك أن الله أكرمه؟ ثم قال ﷺ: والله ما أدري. . الحديث .

التوحيد، والوعد والوعيد، وغير ذلك، روي أنه لما آمن عبد الله بن سلام قال: يا رسول الله: إن اليهود قوم بُهتٌ، وإن علموا بإسلامي بهتوني، فجاءت اليهود، فقال لهم النبي ﷺ: أي رجل عبد الله فيكم؟ فقالوا: خيرنا، وابن خيرنا، وأعلمنا وابن أعلمنا، فقال ﷺ: أرأيتم إن أسلم عبد الله؟ فقالوا: أعاده الله من ذلك، فخرج عليهم عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فقالوا: شَرْنَا وابن شَرْنَا^(١) ﴿فَأَمَّنَ وَاسْتَكْبَرْتَ﴾ جواب الشرط محذوف، والمعنى: أخبروني إن كان من عند الله، وشهد بذلك أعلم بني إسرائيل، فأمن به، واستكبرتم عن الإيمان به، من أضلُّ وأظلم منكم؟ بقرينة قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدَ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقِ بَعِيدٍ﴾^(٢) ؟ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ وصفهم بالظلم، للإشعار بعله الحكم، فعدم هدايتهم لظلمهم.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَارٌ قَدِيمٌ﴾^(١١).

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ حكاية لبعض آخر من أقاويلهم الباطلة، في حق القرآن والمؤمنين به ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي قالوا لأجل إيمان المؤمنين ﴿لَوْ كَانَ﴾ أي ما جاء به محمد من القرآن والدين ﴿خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ فإن معالي الأمور لا ينالها أيدي الفقراء والرعاة!! قالوا: وعامة من يتبع محمداً فقراء، مثل عمار، وصهيب، وابن مسعود، وغيرهم رضي الله عنهم، قالوه زعماء منهم أن الرياسة الدينية مما تُنال بأسباب دنيوية كما قالوا: ﴿لولا نَزَلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلَيْنِ مِنَ الْقُرَيْتَيْنِ عَظِيمٍ﴾؟ وغاب عنهم أنها منوطة

(١) الحديث أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ ١٩٧/٧.

(٢) سورة فصلت، آية: ٥٢.

بكمالات نفسانية، وملكات روحانية، لا بأمر دنيئة دنيوية ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾ أي وإذا لم يهتدوا بالقرآن قالوا ما قالوا ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ غير مكتفين بنفي خيريته ﴿هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي كذبٌ قديم، كما قالوا أساطير الأولين.

﴿وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانَا عَرَبِيًّا لِّنَذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشِّرِيَ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ .

﴿وَمِنْ قَبْلِهِ﴾ أي من قبل القرآن ﴿كَتَبَ مُوسَىٰ﴾ وهو ردُّ لقولهم ﴿هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ فإن كونه مصدقاً لكتاب موسى، مقرر لحقيقته قطعاً كأنه تعالى قال: الذي يدل على صحة القرآن، أنكم لا تنازعون في أن الله أنزل التوراة على موسى، والتوراة مشتملة على البشارة بمقدم رسول الله ﷺ، فإذا سلّمتم كون التوراة إماماً فاقبلوا حكمه في النبي حقاً ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ حالان من كتاب موسى، أي إماماً يقتدى به في دين الله، كما يقتدى بالإمام ورحمة من الله تعالى لمن آمن به وعمل بموجبه ﴿وَهَذَا﴾ الذي يقولون في حقه ما يقولون ﴿كَتَبَ﴾ عظيم الشأن ﴿مُصَدِّقٌ﴾ لكتاب موسى أو لما بين يديه من جميع الكتب الإلهية ﴿لِسَانًا عَرَبِيًّا﴾ أي أنزله الله بلسان عربي ﴿لِيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي إنذاراً وتخويفاً للظالمين ﴿وَبُشِّرِيَ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ أي المقصود من إنزال هذا الكتاب إنذار المعرضين، وبشارة المطيعين.

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ .

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي استقاموا على التوحيد والإيمان، وطاعة الرحمن.

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ .

﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ أي بسبب أعمالهم الصالحة خلّدوا في الجنة .

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ .

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ﴾ بأن يحسن ﴿بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ أي يحسن إليهما إحساناً كما أحسنا إليه في صغره ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ دلت الآية على أن حق الأم الفطام، لأنه تعالى خصّ الأم بالكره ﴿وَحَمْلُهُ وَفِصْلُهُ﴾ وهو الفطام والمراد به الرضاع ﴿ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ تمضي عليها بمعاناة المشاق لأجله ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي اكتهل واستحكم قوته وعقله ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ قيل لم يبعث نبيّ قبل أربعين لأنه سنّ اكتمال العقل ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي﴾ أي ألهمني ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ أي نعمة الدين وغيرها ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ التنكير للتفخيم والتكثير ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ أي واجعل الصلاح سارياً في ذريتي، راسخاً فيهم، قال ابن عباس: «أجاب الله دعاء أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فأعتق تسعة من المؤمنين، ولم يُرد شيئاً من الخير، إلا أعانه الله تعالى عليه، وأجاب الله دعاءه في ذريته، فلم يكن له ولد إلا آمنوا جميعاً، فاجتمع له إسلام أبويه، وأولاده، ولم يكن ذلك لأحد من الصحابة» ولذلك قيل: إنها نزلت فيه ﴿إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ عما لا ترضاه ﴿وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ الذين أخلصوا لك أنفسهم .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ ﴿١٦﴾ .

﴿ أُولَئِكَ ﴾ المنعوتون بما ذكر ﴿ الَّذِينَ نَقَبَلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ﴾ من الطاعات فإن المباح حسن ولا يثاب عليه ﴿ وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾ أي خطيئاتهم ﴿ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ﴾ أي كائنين في عدادهم ﴿ وَعَدَّ الصِّدْقِ ﴾ مصدر مؤكد، لأن قوله: «نتقبل» و«نتجاوز» وعدُّ من الله لهم بالتقبل والتجاوز، أي وعدهم الله بذلك وعداً صادقاً ﴿ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴾ على السنة الرسل في الدنيا.

﴿ وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ أُفٍّ لَكُمْ أَتَعِدَانِي أَنْ أَخْرَجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَعْجِلَانِ اللَّهَ وَبِكَ ءَامِنُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ ﴾ ﴿١٧﴾ .

﴿ وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَ ﴾ لما وصف الله تعالى البار بوالديه وصف العاق في هذه الآية، أي قال لوالديه عند دعوتهما إلى الإيمان ﴿ أُفٍّ لَكُمْ ﴾ أي قبحاً لكما على هذه الدعوة، والآية في الكافر العاق لوالديه، المكذب بالبعث، وما روي من أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق قبل إسلامه، يرده ما سيأتي من قوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ ﴾ فإنه رضي الله عنه من أفاضل المسلمين ﴿ أَتَعِدَانِي أَنْ أَخْرَجَ ﴾ أن أبعث من القبر بعد الموت ﴿ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي ﴾ أي وقد مضت قرون من الناس قبلي، ولم يبعث منهم أحد ﴿ وَهُمَا يَسْتَعْجِلَانِ اللَّهَ ﴾ يسألان أن يغيثه ويوفقه للإيمان ﴿ وَبِكَ ﴾ أي قائلين له ﴿ ءَامِنُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ﴾ أي البعث، أضافه إليه تعالى، تحقيقاً للحق، وتنبهياً على خطئه في إسناد الوعد إليهما ﴿ فَيَقُولُ ﴾ تكذيباً لهما ﴿ مَا هَذَا ﴾ الذي تسميانه وعد الله ﴿ إِلَّا أَسْطِيزُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي خرافات وأباطيل الأمم السابقة.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ ﴿١٨﴾ .

﴿أُولَئِكَ﴾ القائلون هذه المقالات الباطلة ﴿الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ وهو قوله تعالى لإبليس ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ كما ينبيء عنه قوله تعالى: ﴿فِي أُمِّرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَسِرِينَ﴾ قد ضيعوا فطرتهم الأصلية، باتباع الشيطان فخسروا حياتهم وسعادتهم الأخروية.

﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا وَيُوفِّيهِمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿١٩﴾ .

﴿وَلِكُلِّ﴾ من الفريقين المذكورين ﴿دَرَجَةٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾ مراتب من أجزئية ما عملوا، من الخير والشر، والدرجة غالبية في مراتب المثوبة، وإيرادها ههنا بطريق التغليب^(١) ﴿وَيُوفِّيهِمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقص ثواب أو زيادة عقاب.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْهَبْتُمْ طِبْنَكُمْ فِي حَيَاتِكُمْ الدُّنْيَا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُحْزَنُونَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ ﴿٢٠﴾ .

(١) الدرجات في اللغة هي الطبقات من المراتب، وغلب استعمال الدرجات في الخير كقوله: ﴿هم درجات عند الله﴾ وقوله: ﴿فأولئك لهم الدرجات العلى﴾ وفي الآية هنا إضمار تقديره: ولكل فريق منهم درجات أودركات، حذف الثاني اختصاراً للدلالة المذكور عليه.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ أي يعذبون بها من قولهم عرض الأسارى على السيف أي قتلوا ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيْبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَأَسْتَمَعْتُمْ بِهَا﴾ فلم يبق لكم بعد ذلك شيء منها ﴿فَالْيَوْمَ نَجْزِي عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي الهوان ﴿يَمَا كُنْتُمْ﴾ في الدنيا ﴿تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي بسبب استكباركم ﴿فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَيَمَا كُنْتُمْ نَفْسُونَ﴾ أي وبفسقكم المستمرين، ولما وبَّخ الله تعالى الكافرين بالتمتع بالطيبات، أثر النبي ﷺ وأصحابه والصالحون بعدهم اجتناب اللذات في الدنيا، رجاء ثواب الآخرة، روى الشيخان عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «دخلتُ على رسول الله ﷺ، فإذا هو متكئٌ على رمالٍ حصير، قد أُنْزِر في جنبه، فقلت: أستأنسُ يا رسول الله؟ قال: نعم، فجلستُ فرفعت رأسي في البيت فوالله ما رأيت فيه شيئاً يرُدُّ البصر، إلا أهبة ثلاثة، فقلت: يا رسول الله، ادع الله أن يوسع على أمتك، فقد وسع على فارس والروم، ولا يعبدون الله!! فاستوى جالساً ثم قال: أفي شك أنت يا ابنَ الخطاب، أولئك قوم عَجَلتْ لهم طيباتهم في الحياة الدنيا، فقلت: استغفر لي يا رسول الله..»^(١) وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين، حتى قبض رسول الله ﷺ»^(٢) وروى البخاري عن عائشة أيضاً قالت: «كان يأتي علينا الشهر والشهران، وما يُوقَد فيه نار، إنما هو الأسودان: التمر، والماء»^(٣) إلا أن هذه الآية لا تدل على المنع من التنعم، لأنها وردت في حق الكافر، لأنه يتمتع ولم يؤد شكره، بخلاف المؤمن، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾؟ نعم إن الاحتراز أولى، لأن النفس إذا اعتادت التنعم، صعب عليها الاحتراز، وربما حمله ذلك على فعل ما لا ينبغي.

(١) الحديث أخرجه البخاري ٥٠٣/٨ في التفسير ومسلم في الطلاق رقم ١٤٧٩.

(٢) الحديث أخرجه البخاري الأظعمة ٤٧٨/٩ ومسلم في الزهد رقم ٢٩٧٠.

(٣) الحديث أخرجه البخاري في الرقاق ٢٨٢/١١.

﴿ وَأَذَكُرْ أَخَاعِدِ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ
وَمِنْ خَلْفِهِ ۚ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (٢١) .

﴿ وَأَذَكُرْ ﴾ لكفار مكة ﴿ أَخَاعِدِ ﴾ أي هوداً عليه السلام ﴿ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ ﴾ أي وقت إنذاره إياهم ﴿ بِالْأَحْقَافِ ﴾ جمع حَقْف وهو التل العظيم من الرمل، قال قتادة: كانوا حياً باليمن أهل رمل، بأرضي يقال لها: الشحر، مشرفين على البحر. ﴿ وَقَدْ خَلَّتِ النُّذُرُ ﴾ أي الرسل ﴿ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ أي من قبل هود، ومن بعده، والجملة اعتراضٌ وَسَطٌ بين «أَنْذَرَ» وبين قوله: ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ والمعنى: إن هوداً قد أَنْذَرَهُمْ بذلك، وأعلمهم أن الرسل الذين بُعِثُوا قبله، والذين سيبعثون بعده، كلهم منذرون نحو إنذاره.

﴿ قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَّفِكَنَّ عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأُتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ
الصَّادِقِينَ ﴾ (٢٢) .

﴿ قَالُوا أَجِئْنَا لِنَتَّفِكَنَّ عَنْ ءَالِهَتِنَا ﴾ أي لتصرفنا عن عبادة آلهتنا ﴿ فَأُتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ أي فأتتنا بالعذاب الذي وعدتنا به إن كنت صادقاً في كلامك.

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ ۚ وَلَكِنِّي أَرِنُكُمْ قَوْمًا
بَجْهَلُونَ ﴾ (٢٣) .

﴿ قَالَ ﴾ هود عليه السلام ﴿ إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ أي العلم بوقت نزول العذاب ﴿ عِنْدَ اللَّهِ ﴾ وحده، لا علم لي بوقت نزوله ﴿ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ ﴾ إليكم، وما على الرسول إلا البلاغ ﴿ وَلَكِنِّي أَرِنُكُمْ قَوْمًا بَجْهَلُونَ ﴾ حيث تصرّون على كفركم، وتطلبون العذاب من جهالتكم وسفهكم.

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالَُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا ﴾ أي ولما شاهدوا سحاباً يعرض في الأفق ﴿ مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ ﴾ أي متوجهاً نحو أوديتهم، استبشروا ﴿ قَالَُوا هَذَا عَارِضٌ مُّطِرُنَا ﴾ قال المفسرون: كان قد حُبس عنهم المطر، فلما رأوه مستقبل أوديتهم، استبشروا، وقالوا: هذا سحاب مبارك ممطرنا، أي يأتينا بالمطر ﴿ بَلْ هُوَ ﴾ أي قال هود عليه السلام رداً عليهم: ليس الأمر كذلك، بل هو ﴿ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ ﴾ من العذاب ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ أي ريح عاصفة مدمرة، فيها عذاب فظيع مؤلم.

﴿ تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

﴿ تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ أي تهلك كل شيء من أموالهم، ونفوسهم، وحيواناتهم، ونباتاتهم، بأمر الله ﴿ فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنُهُمْ ﴾ أي فجاءتهم الريح فدمرتهم، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم، لأن الريح العاتية لم تبق منهم إلا الأثار ﴿ كَذَلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الجزاء ﴿ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾ أي نعاقب من كان كافراً مجرماً.

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيْمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ ﴾ أي ملكناهم وأقدرناهم ﴿ فِيْمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ ﴾ أي في الذي لم نمكنكم يا أهل مكة فيه، من السعة، والبسطة، وطول

الأعمار، وسائر مبادئ التصرفات، كقوله تعالى: ﴿مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ﴾ (١) ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً﴾ أي آلات الإحساس والفهم، ليستعملوها فيما خلقت له، ويستدلوا بها على شؤون منعمها ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ﴾ حيث لم يستعملوه في استماع الوحي ومواظب الرسل ﴿وَلَا أَبْصَرُهُمْ﴾ حيث لم يجتلبوا بها الآيات التكوينية المنصوبة في صحائف العالم ﴿وَلَا أَفْعَدْتُهُمْ﴾ حيث لم يستعملوها في معرفة الله ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ أي شيئاً من الإغناء ﴿إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ أي حيث كانوا يكفرون بآيات الله وينكرونها، وهو كالتعليل لهلاكهم ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي نزل بهم العذاب، وأحاط بهم من كل جانب، وهو العذاب الذي كانوا يستعجلون به استهزاءً.

﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقَرْيِ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٢٧)

﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقَرْيِ﴾ يا أهل مكة كبلاد ثمود باليمن، وقرى قوم لوط بالشام أهلكتناها مع أهلها ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾ كررناها لهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لكي يرجعوا عما هم فيه من الكفر والمعاصي، ولكنهم لم ينتفعوا بذلك.

﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (٢٨)

﴿فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾ أي فهلاً نصرتهم آلهتهم الذين عبدوها من دون الله، واتخذوهم قرابة بينهم وبين الله عز وجل؟ حيث كانوا يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾

(١) سورة الأنعام، آية: ٦.

﴿هُؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ وفيه تهكم بهم وبالتهتم المزعومة ﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ أي غابوا عنهم، وفيه تهكم آخر بهم، كأن عدم نصرهم لغيتهم ﴿وَذَلِكَ﴾ أي ضياع آلهتهم وامتناع نصرهم ﴿إِفْكُهُمْ﴾ أي أثر إفكهم وكذبهم على الله، وهو اتخاذهم إياها آلهة ﴿وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ عطف على إفكهم وأثر افتراءهم بقولهم إنها آلهة، وإنها تشفع لهم.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصَبُوا لَنَا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ﴾ أي وجهناهم إليك، وأقبلنا بهم نحوك ﴿نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ قال الراغب: والجنُّ: مخلوقات مستترة عن الحواس، وهم من الروحانيين، وذلك أن الروحانيين ثلاثة: أخیارهم الملائكة، وأشرارهم الشياطين، وأوساط، فيهم أخیار وأشرار، وهم الجن، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَا مِّنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾ وقد دلَّ الكتاب وأخبار الأنبياء على وجود الجن، واعترف به جمع عظیم من قدماء الفلاسفة، وغاية ما فيه وجود أشخاص بيننا لا نراهم، وليس ذلك مما يمنع وجودهم، فإن من المقطوع به أن الروح، والعقل في البدن، ولا نراهما (١) ﴿يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ أي لاستماع القرآن ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أي القرآن ﴿قَالُوا﴾ أي قال بعضهم لبعض ﴿أَنصَبُوا﴾ أي اسكتوا لنسمعه ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾ أي أتم ﷺ وفرغ عن تلاوة القرآن ﴿وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ أي

(١) الجنُّ مخلوقات غيبية كالملائكة، يختلفون عنهم في أصل الخلقة، فأصلهم من نار، والملائكة من نور، وهم مكلفون كالإنس بتوحيد الله وطاعته وعبادته، وجميع الجن داخلون في دائرة المسؤولية، وقد بلغهم ﷺ دعوة الإسلام، فأمن البعض وكفر البعض، فالإيمان بهم واجب، ولا ينكر وجودهم إلا غيبي جاهل، لأن هناك أشياء كثيرة موجودة ولا نراها كالميكروبات والجراثيم، والروح والعقل كما أشار إليه المصنف رحمه الله.

رجعوا إلى قومهم مصممين إنذارهم عذاب الله، وداعين لهم إلى الإيمان،
وذلك لا يكون إلا بعد إيمانهم، فعند ذلك:

﴿ قَالُوا يَنْقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ .

﴿ قَالُوا يَنْقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ ﴾ قالوه لأنهم كانوا على اليهودية ﴿ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ أرادوا به الكتب السماوية ﴿ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ موصل إليه، وهو الشرائع والأعمال.

﴿ يَنْقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَءَامِنُوا بِهِ ۖ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ .

﴿ يَنْقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ ﴾ وهو الرسول ﷺ ﴿ وَءَامِنُوا بِهِ ﴾ أرادوا به ما سمعوه من الكتاب، والإيمان بالرسول الذي نزل عليه القرآن ﴿ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ ﴾ أي بعض ذنوبكم، وهو ما كان في خالص حق الله تعالى، فإن حقوق العباد لا تغفر بالإيمان ﴿ وَيُجِرْكُمْ مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ أي ينقذكم من عذاب شديد مؤلم، معد للكفرة، واختلف العلماء في حكم مؤمن الجن، فقال قوم: ليس لهم ثواب إلا نجاتهم من النار، والأكثر على أنهم في حكم بني آدم ثواباً وعقاباً، وتمام الكلام في سورة الجن.

﴿ وَمَنْ لَا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أََوْلِيَاءٌ ۗ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ .

﴿ وَمَنْ لَا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ ﴾ هذا ترهيب بعد الترغيب، أي ومن لم يؤمن بالله، ويستجب للدعوة رسوله ﷺ فليس بمعجز له تعالى بالهرب، وإن هرب كل مهرب ﴿ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أََوْلِيَاءٌ ﴾ بيان لاستحالة

نجاته بواسطة الغير، أي وليس له من ينقذه ويخلصه من عذاب الله تعالى، من أنصار ولا أعوان، ولا من عبدتهم من دون الله ﴿أُولَئِكَ﴾ أي الموصوفون بعدم الإجابة ﴿فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي ظاهر كونه ضلالاً، بحيث لا يخفى على أحد، حيث أعرضوا عن الاستجابة لدعوة الله .

﴿أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقِهِنَّ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَةَ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

﴿أَوْلَمْ يَرَوْا﴾ أي ألم يتفكروا ولم يعلموا ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ ابتداءً من غير مثال ﴿وَلَمْ يَعْ يَخْلُقِهِنَّ﴾ أي لم يتعب، ولم يعجز ولم يضعف بذلك أصلاً ﴿بِقَدِيرٍ﴾ خبر لأن، كأنه قيل: أوليس الله بقادر ﴿عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَةَ﴾ ولذا أجيب بقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تقرير للقدرة على وجه عام، أي لا يعجزه شيء، فكما خلقهم يعيدهم .

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ .

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾ أي ذكّرهم يوم يعرضون على نار جهنم ﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ أي يقال لهم: أليس هذا العذاب الذي ترونه حقاً؟ وفيه سخرية بهم وتوبيخ لهم على استهزائهم بوعد الله ووعيده حيث كانوا يقولون ﴿وما نحن بمعذبين﴾ ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ أكدوا جوابهم بالقسم، كأنهم يطمعون في الخلاص بالاعتراف بحقيقتها كما في الدنيا، وأنى لهم ذلك؟ ﴿قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ أي ذوقوا العذاب الأليم بسبب كفركم وجحودكم للحساب والجزاء .

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَّغٌ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴾ .

﴿ فَاصْبِرْ ﴾ الفاء جواب شرط محذوف، أي إذا كان عاقبة أمر الكفرة ما ذكر، فاصبر على ما يصيبك يا محمد من جهتهم ﴿ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ ﴾ أي أولو الثبات والحزم ﴿ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ فإنك من جملتهم، بل من أكابره، والمراد بأولو العزم: أصحاب الشرائع الذين اجتهدوا في تأسيسها وصبروا على تحمل مشاقها، ومشاهيرهم: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى عليهم السلام، وقال ابن زيد: كلهم ذوو عزم، وحزم، واختاره الرازي على أن «مِنَ» للتبيين ﴿ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ﴾ أي لكفار مكة بالعذاب، فإنه على شرف النزول بهم ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ ﴾ من العذاب ﴿ لَمْ يَلْبَثُوا ﴾ في الدنيا ﴿ إِلَّا سَاعَةً ﴾ يسيرة ﴿ مِّنْ نَّهَارٍ ﴾ استقصروها لما يشاهدونه من شدة العذاب ﴿ بَلَّغٌ ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي هذا الذي وُعِظتم به تبليغٌ من الرسل ﴿ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ ﴾؟ أي الخارجون عن الطاعة وعن الإيمان، وقال الزجاج: لا يهلك مع رحمة الله وفضله، إلا القوم الفاسقون.

والله أعلم بمراده، والحمد لله على نعمائه، والصلاة والسلام على نبيه وعلى آله وصحبه، وعلى العلماء العاملين بسنته، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الأحقاف»

* * *

obeikandi.com

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

مدنية وآيها ثمان وثلاثون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ (١)

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي امتنعوا عن الدخول في الإسلام، وصدّوا غيرهم عنه، وهو عام في كل من كفر وصدّ الناس عن دين الله ﴿ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي أبطلها وجعلها ضائعة لا أجر لها ولا ثواب، بمعنى أنه تعالى حكم ببطلانها وضياعها، فإن ما كانوا يعملونه من أعمال البرّ، كصلة الرحم، وقرى الأضياف وغيرها، ليس لها أثر في الآخرة، لعدم مقارنتها للإيمان، فإن الإيمان شرط لقبول العمل، قال الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ (١) وإذا لم يقبل العمل، لا يكون له وجود بالكلية.

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ﴾

﴿ كَفَرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ (٢)

(١) سورة النحل، آية: ٩٧.

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿وَهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ خصَّ بالذكر مع اندراجه فيما قبله، تنويهاً بشأنه، وتنبيهاً على سمو مكانه من بين سائر ما يجب الإيمان به، وأنه أصل في الكل، ولذا أكد بقوله ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ بطريق حصر الحقية فيه ﴿كَفَرُوا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي سترها بالإيمان والعمل الصالح، ومحاسنها وغفرها لهم ﴿وَأَصْلَحَ بِهَاكُمُ﴾ أي حالهم في الدين والدنيا، بالتأييد والتوفيق، وقيل: قلوبهم، لأن القلوب إذا صلحت صلح الجسد كله.

﴿ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَتَّبِعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَّبِعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾
 كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ﴿٣﴾ .

﴿ذَلِكَ يَأْنِ لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَتَّبِعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَّبِعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي ذلك الإضلال لأعمال الكفار، بسبب أنهم سلكوا طريق الضلال ﴿كَذَلِكَ﴾ أي مثل ذلك الضرب البديع ﴿يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ أي يبين للناس ﴿أَمْثَلَهُمْ﴾ أي أحوال الفريقين، وأوصافهم الجارية في الغرابة مجرى الأمثال، وهي اتباع الأولين الباطل وخسرانهم، واتباع الآخرين الحق وفوزهم.

﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَتَخْتَمُوهُمُ فَشُدُّوا الْوَتَاكَ فَمَا مَنَّا بَعْدُ وَإِنَّمَا فِدَاءٌ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآنصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَيَبْلُوَنَّكُمْ بِبَعْضِكُمْ بَعْضٌ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ ﴿٤﴾ .

﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي إذا كان الأمر كذلك، فإذا لقيتم في المحاربة الكفار أعداءكم وقوله: ﴿لَقِيتُمْ﴾ يدل على أن القصد من جانب المؤمنين، بخلاف إذا لقيكم، ﴿فَضَرْبِ الرِّقَابِ﴾ أصله فاضربوا الرقاب ضرباً، ففيه اختصار، وتأكيده بليغ، وتهويلٌ لأمره، وإرشاد للغزاة إلى أيسر ما يكون منه، وذلك بضرب الرأس، فإذا أُبين عن بدنه، كان أسرع للموت

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَنْخَسْتُمُوهُمْ ﴾ أي أكثرتم قتلهم، وأثقلتموهم بالقتل والجراح ﴿ فَشَدُّوا الْوَتَاقَ ﴾ أي فأسروهم واحفظوهم، والوَتَاق بالفتح: القيد، والحبل، وهو اسم لما يوثق به أي يربط به ﴿ فَأَمَّا مَنْ بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً ﴾ أي فإما تمنون مناً بعد ذلك أو تفدون فداءً، والمعنى: التخيير بين الاسترقاق، والمن، والفداء.

وقال مجاهد: ليس اليوم مَنْ ولا فداء، إنما هو الإسلام، أو ضرب العنق ﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ أوزار الحرب: آلتها وأثقالها التي لا تقوم إلا بها، من السلاح، والكُراع، وأسند وضعها إليها وهو لأهلها إسناداً مجازياً، والمعنى إنهم لا يزالون على ذلك أبدأً إلى أن لا يكون مع المشركين حرب، بأن لا تبقى لهم شوكة ﴿ ذَلِكَ ﴾ أي افعلوا ذلك ﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ أي لانتقم منهم ببعض أسباب الهلكة والاستئصال ﴿ وَلَكِنْ ﴾ لم يشأ ذلك ﴿ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ﴾ أي ليختبر إيمانكم وثباتكم، ولذلك أمركم بالقتال، وبلاكم بالكافرين لتجاهدوهم، فتستوجبوا ثواب الله العظيم ﴿ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ أي استشهدوا ﴿ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ أي فلن يضيعها، بل يوفيهم ثواب أعمالهم.

﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ .

﴿ سَيَهْدِيهِمْ ﴾ في الدنيا إلى أرشد الأمور، وفي الآخرة إلى الثواب والجنة ﴿ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴾ أي ويرضى أعمالهم ويقبلها.

﴿ وَيُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ﴾ .

﴿ وَيُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا هُمْ ﴾ بذكر أوصافها، بحيث يعلم كل أحد منزله، كأنه ساكنه منذ خلق.

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يُصَرِّكُمْ وَيُنَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ .

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ ﴾ أي دينه ورسوله ﴿ يَصْرِّكُمْ ﴾ الله تعالى على أعدائكم، ﴿ وَيُبَيِّنْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ في مواطن الحرب، فالمؤمن ينصر الله بخروجه للقتال وإقدامه، والله ينصره بتقوية قلبه، وتثبيت أقدامه.

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَّأْهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ ﴾ ﴿٨﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَّأْهُمْ ﴾ التعس: الهلاك والعثاُر والسقوط، تعس: أكبَّ على وجهه، وهذا زيادة في تقوية قلوبهم، كأنه قال تعالى: ولكم الثبات، ولهم الزوال به ﴿ وَأَضَلَّ أَعْمَلَهُمْ ﴾ .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴾ ﴿٩﴾ .

﴿ ذَلِكَ ﴾ الشقاء وضلال الأعمال ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ بسبب أنهم ﴿ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ أي القرآن لما فيه من التوحيد، والأحكام، المخالفة لما أُلْفوه واشتهته أنفسهم الأمانة بالسوء ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ ﴾ أي أذهبها وأضاعها.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴾ ﴿١٠﴾ .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾؟ أي أقعدوا في أماكنهم، فلم يسيروا فيها، فينظروا كيف كان من قبلهم من الأمم المكذبة، فإن آثار ديارهم تنبئ عن أخبارهم ﴿ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي أهلكتهم الله واستأصلهم وخرَّب ديارهم ﴿ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَلُهَا ﴾ أي ولهؤلاء الكافرين أمثال عقوباتهم، وعاقبتهم الوحيمة.

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ ﴿١١﴾ .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ أي ذلك المذكور من العقوبة بسبب أنه تعالى ناصر المؤمنين بسبب إيمانهم، وأن الكافرين لا ناصر لهم يدفع ما حلّ بهم من العذاب، ولا يخالف هذا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ﴾ فإن المولى هناك بمعنى المالك، وههنا بمعنى الناصر، فإنه تعالى مولى المؤمنين والكافرين من جهة الملك والتصرف، ومولى المؤمنين خاصة من جهة النصرة.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ بيان لحكم ولايته لهم، وثمراتها الأخروية ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَنَّوْنَ وَيَأْكُلُونَ﴾ أي ينتفعون في الدنيا بمتاعها الفاني، ولذائذها وشهواتها، ليس لهم همٌّ إلا بطونهم وفروجهم، ويأكلون ﴿كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ أي كالبهائم، غافلين عن عواقبهم ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ أي ونار جهنم مقامهم ومنزلهم في الآخرة.

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرْيَةٍ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾.

﴿وَكَايْنٍ مِّنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّنْ قَرْيَةٍ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ﴾ أي وكم من أهل قرية، هم أشد قوة من أهل مكة، الذين كانوا سبباً لخروجك من بينهم، وصفُ القرية الأولى بشدة القوة؛ للإيدان بأولوية الثانية بالإهلاك، ووصفُ الثانية بإخراجه ﷺ؛ تلميح لعظم جنایاتهم ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ أي فلم ينصرهم أحد، ولم يستطع دفع العذاب عنهم، وهذه تسلية للرسول ﷺ، أي كذلك نفعل بالمجرمين من قومك.

﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ ﴿١٤﴾ .

﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ تقرير لتباين حال الفريقين المذكورين، أي هل من هو على حجة وبصيرة، وثبات ويقين من أمر الدين، وبرهان نير، وهو القرآن الكريم ﴿ كَمَن زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ ﴾ من الشرك والمعاصي ﴿ وَاتَّبَعُوا ﴾ بسبب ذلك التزيين ﴿ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ الزائغة، وانهمكوا في الضلالات؟ .

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَنْغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّن حَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّرِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّن عَسَلٍ مُّصَفًّى وَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَن هُوَ خَلَدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴾ ﴿١٥﴾ .

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ بيان محاسن الجنة الموعودة للمؤمنين، أي صفة الجنة التي وعدها الله لعباده المؤمنين المتقين، وأحوالها العجيبة الشأن ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ﴾ أي غير متغير الطعم والرائحة، يقال: آسِن الماء إذا فسد وتغير ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَنْغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴾ أي أنهار من حليب في غاية الجودة والمساغ، لم يحمض بطول المقام، لأن الحليب سريع الفساد ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّن حَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّرِبِينَ ﴾ أي لذيدة ليس فيها كراهة طعم، ولا غائلة سُكْرٍ ولا خُمار، وإنما هي تلذذ محض، وإنما قال: ﴿ لَّذَّةٍ لِّلشَّرِبِينَ ﴾ لأن اللذة تختلف باختلاف الأشخاص، فربَّ طعام يتلذذ به شخص، ويعافه الآخر ﴿ وَأَنْهَارٌ مِّن عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ لا يخالطه الشمع، وفضلات النحل ﴿ وَهُمْ فِيهَا ﴾ مع ما ذكر ﴿ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ ﴾ أي من كل صنف من الثمرات، ولما كان في الجنة الأكل للذة لا للحاجة، ذكر الثمار ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ أي ولهم مغفرة عظيمة، فإن قيل: لا يدخل أحد الجنة إلا بعد المغفرة فكيف قال ولهم مغفرة؟ الجواب أن المراد بالمغفرة رفع التكليف عنهم فكل ما تشتهي نفسه حلال من الجنة ﴿ كَمَن هُوَ خَلَدٌ فِي النَّارِ ﴾ خبر لمبتدأ محذوف تقديره: أَمَّن

هو خالد في هذه الجنة، كمن هو خالد في النار؟ كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا﴾ أي ماءً حاراً قد بلغت حرارته النهاية، مكان تلك الأشربة اللذيذة ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ أي فقطع أحشاءهم من شدة حرارته.

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ ﴿١٦﴾ .

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ﴾ هم المنافقون الذين يظهرون الإيمان، ويبطنون في نفوسهم الكفر والعصيان، كانوا يحضرون مجلس الرسول ﷺ، فيسمعون كلامه، تهاوناً به وتغافلاً عنه، ولا يراعونه حق رعايته ﴿ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ﴾ من الصحابة ﴿ مَاذَا قَالَ آنِفًا ﴾ أي ما الذي قاله محمد الساعة؟ على طريق الاستهزاء، وإن كان بصورة الاستعلام، ﴿ أُولَٰئِكَ ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ لعدم توجههم نحو الخير أصلاً ﴿ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾ الباطلة، فلذلك فعلوا ما فعلوا ممّا لا خير فيه، والمعنى إنهم لما تركوا اتباع الحق، أمات الله قلوبهم، فلم تفهم، فعند ذلك اتبعوا أهواءهم الباطلة.

﴿ وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا زَادَهُمْ هُدًىٰ وَءَانَّهُمْ وَقَوْمَهُمْ ﴾ ﴿١٧﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ أَهْتَدُوا ﴾ إلى طريق الحق ﴿ زَادَهُمْ ﴾ أي المسموع لأنهم فهموه وكانوا مهتدين، فزادهم الله هدى، حتى ارتقوا من درجة المهتدين، إلى درجة الهادين ﴿ هُدًىٰ ﴾ بالتوفيق والإلهام ﴿ وَءَانَّهُمْ وَقَوْمَهُمْ ﴾ أي أعانهم على تقواهم وألهمهم رشدهم.

﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴾ ﴿١٨﴾ .

﴿ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ ﴾ أي القيامة ﴿ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً ﴾ أي تباغتهم بغتة ﴿ فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ أي علاماتها، جمع شرط وهي العلامة، كمبعثه ﷺ، وانشقاق القمر، وقيل: قطع الأرحام، وقلة الكرام، وكثرة اللثام، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ، أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ، وَيُظْهَرَ الْجَهْلُ، وَيُشْرَبَ الْخَمْرُ، وَيُظْهَرَ الزَّانَا، وَيَقْلَّ الرِّجَالُ، وَيَكْثُرَ النِّسَاءُ»^(١) ﴿ فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ ﴾ بيان استحالة نفع التذكر حينئذ، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ أي كيف لهم ذكراهم إذا جاءتهم الساعة، وحينئذ لا ينفعهم ندم ولا توبة!! .

﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيَاكَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبِكُمْ وَمَثَوِّبِكُمْ ﴿١٩﴾ .

﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ أي إذا علمت أن مدار السعادة هو التوحيد، ومناط الشقاوة هو الإشراف والعصيان، فاثبت على ما أنت عليه من العلم بالوحدانية، والعمل بموجبه ﴿ وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيَاكَ ﴾ بما يصدر عنه من ترك الأولى، عبر عنه بالذنب نظراً إلى منصبه الجليل، لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين، ولإرشاده إلى التواضع، وهضم النفس ﴿ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ أي لذنوبهم بالدعاء لهم، وترغيبهم فيما يستدعي الغفران ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبِكُمْ ﴾ في الدنيا، فإنها مراحل لا بد من قطعها لا محالة ﴿ وَمَثَوِّبِكُمْ ﴾ في العقبى فإنها مواطن إقامتكم، وقيل: المعنى يعلم جميع أحوالكم .

(١) الحديث أخرجه البخاري في الفتن ١٤/١٣ .

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ ۖ ﴾ (٢٠)

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ حرصاً منهم على الجهاد ﴿ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾ أي هلاً نُزِّلَتْ سورة فيها ذكر الجهاد، وفريضة الجهاد، لا احتمال فيها لوجه آخر سوى وجوب القتال، وعن قتادة: كلُّ سورة فيها ذكر القتال، فهي محكمة لم تنسخ ﴿ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أي في قلوبهم شك ونفاق ﴿ يُنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ﴾ أي تشخص أبصارهم جنباً وهلعاً، كدأب من أصابته غشية الموت، ﴿ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ ﴾ أي فويل لهم مشتق من الويل، وقيل معناه: الموت أولى لهم، والأول أصح، لأن الويل معناه الهلاك، أي هلاك لهم ودمار.

﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرَ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ ﴾ (٢١)

﴿ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ﴾ مبتدأ محذوف الخبر، تقديره: طاعة لك يا محمد، وأمرٌ معروفٌ خیر لهم ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرَ ﴾ أي فإذا جدَّ الجدُّ، وفُرض القتال ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ ﴾ أي فلو أخلصوا في إيمانهم، واتباعهم الرسول ﴿ لَكَانَ ﴾ الصدق ﴿ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ من التقاعس والعصيان.

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۗ ﴾ (٢٢)

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ أي فلعلكم إن أعرضتم عن الإسلام، أن

ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية ﴿ أَنْ تَفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ أي من الإفساد في الأرض بالمعاصي، وقطع الأرحام.

قال قتادة: كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله، ألم يسفكوا الدم الحرام، ويقطعوا الأرحام، ويعصوا الرحمن؟! .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴾ (٢٣) .

﴿ أُولَئِكَ ﴾ إشارة إلى المخاطبين بطريق الالتفات ﴿ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴾ بعدهم عن رحمته ﴿ فَأَصَمَّهُمْ ﴾ عن استماع الحق لتصامهم عنه بسوء اختيارهم ﴿ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴾ لتعاميهم عما يشاهدونه من الآيات الكونية.

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ (٢٤) .

﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرَاتِ ﴾؟ أي ألا يلاحظون ما فيه من المواعظ والزواجر، حتى لا يقعوا فيما وقعوا فيه من الموبقات؟ ﴿ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾؟ فلا يكاد يصل إليها ذكر أصلاً، و «أم» بمعنى «بل» وهو انتقال من توبيخهم على التدبر في الآيات، إلى التوبيخ على ظلمة القلوب وقسوتها، والمعنى: بل قلوبهم قاسية مظلمة متحجرة، كأنها مكبلة بأقفال حديدية، فلا يصل إليها نور، ولا ينفذ إليها قرآن، وهذا كما تقول عن إنسان مؤذ: هذا ليس بإنسان هذا وحشٌ، وهذا ليس بقلب بل حجر!! .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ ۗ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴾ (٢٥) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ ﴾ أي رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر ﴿ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ ﴾ بالدلائل الظاهرة، وهم المنافقون، أي من بعد أن وضع طريق الهدى بالدلائل الظاهرة، والمعجزات الواضحة

﴿الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي الشيطان سهّل لهم ركوب العظائم، من الفواحش والمنكرات ﴿وَأَمَلَى لَهُمْ﴾ ومدّ لهم في الأمانى والآمال.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ ﴿٢٦﴾ .

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بسبب أنهم ﴿قَالُوا﴾ يعني المنافقين ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ أي اليهود الكارهين لنزول القرآن على رسول الله ﷺ، مع علمهم بأنه من عند الله تعالى، حسداً وطمعاً في نزوله عليهم ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ عبارة عما حكى عنهم بقوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذين، نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب﴾^(١) الآية، وهم بنو قريظة والنضير، وإنما كانوا يقولون لهم ما يقولون سرّاً، كما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ أي إخفاءهم، وما دبّروه من الكيد واللدس، والتأمّر على الإسلام والمسلمين، قالوا ذلك لليهود سرّاً، فكشفه الله وفضّحهم.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَاهُمْ﴾ ﴿٢٧﴾ .

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَاهُمْ﴾ ؟ أي فكيف يفعلون إذا توفتهم الملائكة، وجاءتهم ومعهم مقامع من حديد، يضربون بها وجوههم وظهورهم؟ .

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ ﴿٢٨﴾ .

(١) سورة الحشر، آية: ١١ .

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ العذاب الهائل ﴿ يَأْتَهُمْ ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ ﴾ من الكفر والمعاصي ﴿ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ ﴾ أي ما يرضاه من الإيمان والطاعة ﴿ فَاحْبَطْ أَعْمَلَهُمْ ﴾ أي أبطلها وأزهدتها.

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ ﴾ .

﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ هم المنافقون الذين فُصِّلَتْ أحوالهم، وصفوا بوصفهم السابق، لكونه مداراً لما نُعي عليهم، بقوله تعالى ﴿ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَنَهُمْ ﴾؟ جمع ضغن، وهو الحقد الشديد، مثل حنل وأحمال، والمعنى: أحسب الذين في قلوبهم حقد وعداوة للمؤمنين، أنه تعالى لن يخرج أحقادهم، ولن يُبرزها للرسول ﷺ وللمؤمنين، فتبقى أمورهم مستورة؟ ذلك مما لا يكاد يدخل تحت الاحتمال.

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ .

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ ﴾ لعرفناكم بدلائل تعرفهم بأعيانهم ﴿ فَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ﴾ بعلاماتهم التي نسّمهم بها، وعن أنس رضي الله عنه قال: «ما خفي على رسول الله ﷺ بعد هذه الآية، شيء من المنافقين، كان يعرفهم بسماهم» ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ أي من فحوى كلامهم وأسلوبهم ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ فيجازيكم بحسب قصدكم، وهذا وعدٌ ووعد.

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ .

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ ﴾ بالأمر بالجهاد ونحوه من التكليف الشاقة ﴿ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ﴾ علماً فعلياً يتعلق به الجزاء ﴿ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّادِقِينَ ﴾ أي الثابتين الذين لا

يؤلون الأدبار ﴿وَنَبَلُوا أَخْبَارَكُمْ﴾ ما يخبر به عن أعمالكم، فيظهر حسنها وقيحها.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ
الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلُهُمْ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا﴾ الناس ﴿عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي عن الدخول في الإسلام ﴿وَشَاقُوا الرَّسُولَ﴾ أي حاربوا الرسول وخرجوا عن طاعته، ومنهم الذين أطعموا المشركين يوم بدر ﴿مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ بما ظهر على يديه من المعجزات، ونزل عليه من الآيات ﴿لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ﴾ بكفرهم وصدّهم عن سبيل الله ﴿شَيْئًا﴾ من الأشياء ﴿وَسَيُحِطُّ أَعْمَلُهُمْ﴾ أي مكائدهم التي نصبوها في إبطال دينه؛ ومشاقه رسوله، فلا يصلون بها إلى ما كانوا يبيغون من الغوائل.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطَلُوا
أَعْمَلَكُمْ﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطَلُوا أَعْمَلَكُمْ﴾ بما أبطل هؤلاء أعمالهم بالكفر والنفاق، وليس فيه إحباط الطاعات بالكبائر، أي داوموا على ما أنتم عليه ولا ترتدوا.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ
لَهُمْ﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ حكم يعم كل من مات على الكفر، وإن صح نزوله في أصحاب القلب أي قلب بدر لأن العبرة يعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

﴿ فَلَا تَهْتُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْوِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ ﴿٣٥﴾ .

﴿ فَلَا تَهْتُوا ﴾ أي لا تضعفوا يا معشر المؤمنين ﴿ وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْوِ ﴾ أي ولا تدعوا الكفار إلى الصلح خَوْرًا ﴿ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ ﴾ أي وأنتم الأعزة الغالبون لأنكم مؤمنون ﴿ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ فإن كونهم مؤمنين، وكونه تعالى ناصرهم، من أقوى موجبات الاجتناب عما يوهم الذل، وهذا كقوله تعالى: ﴿ لَا غَلْبَانَ أَنَا وَرُسُلِي ﴾ وقوله: ﴿ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ ﴿ وَلَنْ يَتَرَكَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ أي لن يضيعها، من الوتر الذي هو الفرد، أي لن ينقص شيئاً من ثواب أعمالكم .

﴿ إِنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَنَفَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْتَلِكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ ﴿٣٦﴾ .

﴿ إِنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ ﴾ أي ما الحياة الدنيا إلا فانية زائلة، لا قرار لها ولا ثبات، تشبه لعب الأولاد، فلا ينبغي أن تكون مانعاً للمؤمن عن الجهاد، خوفاً من فواتها، فما عند الله خير للأبرار. ﴿ وَإِنْ تَوَمَّنُوا وَتَنَفَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ﴾ أي ثواب إيمانكم وثواب تقواكم كاملاً ﴿ وَلَا يَسْتَلِكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴾ أي ولا يطلب منكم أن تنفقوا جميع أموالكم بحيث يخلُ أداؤها بمعاشكم، وإنما اقتصر على نَزْرِ يسير منها، تؤدونها إلى فقرائكم .

﴿ إِنْ يَسْتَلِكُمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَحْفِكُمْ فَتَبَخَّلُوا وَنُحْرَجَ أَصْفَانَكُمْ ﴾ ﴿٣٧﴾ .

﴿ إِنْ يَسْتَلِكُمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ أموالكم ﴿ فَتَبَخَّلُوا ﴾ أي يجهدكم بطلب الكلِّ فإن الإحفاء والإلحاف هو المبالغة في الإلحاح ﴿ تَبَخَّلُوا ﴾ لو طلبها لبخلتهم، كيف وأنتم تبخلون باليسير، فكيف لا تبخلون بالكثير؟ ﴿ وَنُحْرَجَ ﴾

أَضَعْنَاكُمْ ﴿ أي أحقادكم، أي يخرج ما في قلوبكم من البخل، وكرهة الإنفاق، لأن الإنسان جُبِلَ على حبِّ المال، ومن نوزع في حبيبه ظهرت سرائر نفسه، فمن رحمته تعالى أنه لم يكلفكم بما لا تطيقون.

﴿ هَاتِنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴾ ﴿٣٨﴾ .

﴿ هَاتِنْتُمْ هَؤُلَاءِ ﴾ أي أنتم هؤلاء المخاطبون ﴿ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ والإنفاق في سبيل الله، يعمُّ نفقة الغزو، والزكاة وغيرهما ﴿ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ ﴾ أي ناس يبخلون ﴿ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَّفْسِهِ ﴾ فإن كلاً من نفع الإنفاق، وضرر البخل، عائد إليه، كمن بخل بأجرة الطبيب، وثمر الدواء، وهو مريض ﴿ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ ﴾ أي مستغن عنكم وعن إنفاقكم ﴿ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ أي وأنتم محتاجون إليه، فإن امتثلتم فلکم، وإن توليتم فعليكم ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا ﴾ أي وإن تعرضوا عن الإيمان والتقوى ﴿ يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ يخلف مكانكم قوماً آخرين ﴿ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴾ في التولي عن الإيمان، والبخل في الإنفاق، بل يكونوا أسخياء كرماء.

والله أعلم بمراده، والصلاة والسلام على خير خلقه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة محمد»

obeikandi.com

سُورَةُ الْفَتْحِ

مدنية وآياتها تسع وعشرون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ﴾ .

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ ﴾ المراد به فتح مكة شرفها الله، والتعبير عنه بصيغة الماضي للإيذان بتحقيقه لا محالة، تأكيداً للتبشير، وقيل: هو صلح الحديبية، فإنه وإن لم يكن فيه حرب، لكن أصاب رسول الله ﷺ ما لم يصب في غزوة^(١)، ووقع في الحديبية معجزة عظيمة، هي أنه كان بها بئرٌ، نُزِحَ ماؤها حتى لم يبق فيها قطرة، فمضمض رسول الله ﷺ، ثم مسحَ فيها، فدرَّتْ بالماء، حتى شرب من كان فيها من الجيش ﴿ فَتَحًا مُبِينًا ﴾ أي فتحاً بيّناً، ظاهراً، فارقاً بين الحق والباطل.

(١) ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالفتح «صلح الحديبية» لما ترتب على هذا الصلح من الآثار العظيمة، من بيعة الرضوان، ومن الصلح الذي عقده رسول الله ﷺ مع قريش، ومن دخول كثير في الإسلام، إلى غير ما هنالك من أمور عظيمة، وإلى هذا القول ذهب الحافظ ابن كثير رحمه الله.

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ ﴿٢﴾ .

﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ﴾ غاية الفتح من حيث إنه مترتب على سعيه ﷺ في إعلاء كلمة الله تعالى بمكابدة مشاق الحروب ﴿مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ أي جميع ما فرط منك من ترك الأولى، وتسميتها ذنباً بالنسبة إلى منصبه الجليل ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ بإعلاء الدين، وضم النصر إلى النبوة، وغيرهما مما أفاض الله عليه من النعم الدينية والدينية ﴿وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ في تبليغ الرسالة وإقامة مراسم الرياسة، وأصل الاستقامة وإن كانت حاصلة قبل الفتح، لكن حصل بعد ذلك من اتضح سبيل الحق، واستقامة مناهجه، ما جعل كثيرين من المشركين يدخلون في دين الله .

﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ ﴿٣﴾ .

﴿وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ أي نصراً فيه عزةً ومنعة، يجمع لك فيه بين عز الدنيا والآخرة .

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ﴿٤﴾ .

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ﴾ بيان لما أفاض عليهم من مبادئ الفتح، من الثبات والطمأنينة، أي أنزلها ﴿فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بسبب الصلح والأمن، إظهار نعمة الله تعالى عليهم، بتيسير الأمن بعد الخوف ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ أي يقيناً منضمماً إلى يقينهم، برسوخ العقيدة في القلوب، والتوكل على علام الغيوب ﴿وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يدبر أمرها حسبما تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا﴾ مبالغاً في العلم

بجميع الأمور ﴿حَكِيمًا﴾ في تقديره وتدبيره، فكان قادراً على إهلاك عدوه، ولم يفعل، بل أهلكتهم بأيدي المؤمنين، ليكون لهم الثواب العظيم بقتال المشركين، كما يدل عليه قوله تعالى:

﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي دبر ما دبر، من تسليط المؤمنين، ليعرفوا نعمة الله في ذلك، ويشكروها فيدخلهم الجنة ﴿وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي يغطيها ولا يظهرها ويمحوها عنهم فلا يؤاخذهم بها ﴿وَكَانَ ذَلِكَ﴾ أي ما ذكر من الإدخال والتكفير ﴿عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ لا يُقادر قدره، لأنه منتهى ما تمتد إليه أعناق الرجال.

﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ﴾
بِاللَّهِ ظَنُّ السُّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَعَظِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

﴿وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ وفي تقديم المنافقين، دلالة على أنهم أحق من الكفار بالعذاب، لأنهم كانوا أشد على المؤمنين، بحيث لا يمكن التحرز عنهم ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السُّوءِ﴾ أي ظن الأمر السوء، وهو أن الله لا ينصر رسوله والمؤمنين، وأن المشركين يستأصلونهم فلا يرجعون إلى ديارهم ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ﴾ أي ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين، فهو نازل بهم، ودائر عليهم ﴿وَعَظِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي سخط عليهم أشد السخط، لكفرهم ونفاقهم، وأبعدهم عن رحمته ﴿وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ أي وأعدَّ لهم في الآخرة ناراً عظيمة مستعرة هي نار جهنم، وبئست جهنم مرجعاً ومنقلباً لأهل النفاق والضلال.

﴿وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ﴿٧﴾ .

﴿وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ﴿٧﴾ كرر الآية تأكيداً، وفائدتها التنبيه على أن الله تعالى جنود الرحمة، وجنود العذاب، وأن المراد ههنا جنود العذاب، كما ينبىء عنها التعرض لوصف العزة، فذكرهم أولاً لبيان جنود الرحمة لأن الحديث عن المؤمنين، وذكرهم ثانياً لبيان إنزال العذاب، لأن الحديث عن المنافقين والكافرين.

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ﴿٨﴾ .

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ﴾ الخطاب للرسول ﷺ ﴿شَهِيدًا﴾ على أمتك، لقوله تعالى ﴿ويكون الرسولُ عليكم شهيداً﴾ ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ على الطاعة ﴿وَنَذِيرًا﴾ على المعصية.

﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَنُعَزِّرُوهُ وَنُقِرُّوهُ وَسُبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ ﴿٩﴾ .

﴿لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الخطاب للرسول ﷺ وأُمَّته ﴿وَنُعَزِّرُوهُ﴾ أي تقووه بتقوية دينه ورسوله، والتعزيزُ نصرٌ مع تعظيم ﴿وَنُقِرُّوهُ﴾ أي تعظموه ﴿وَسُبِّحُوهُ﴾ أي وتنزهوا ربكم^(١) ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أي غدوة وعشياً بمعنى دائماً في الصباح والمساء.

(١) على هذا القول تكون الضمائر كلها راجعة إلى الله عز وجل، وهذا اختيار البيضاوي وأبي السعود، واختار جمع من المفسرين أن الضمير في قوله تعالى: ﴿وَنُعَزِّرُوهُ﴾ و﴿نُقِرُّوهُ﴾ و﴿وَسُبِّحُوهُ﴾ عائِد على النبي ﷺ، أي تنصروا الرسول وتقووه، وتحترموه وتجلُّوه، والضمير في قوله: ﴿وَسُبِّحُوهُ﴾ عائِد على الله عز وجل، وهذا قول الضحاك، واختاره القرطبي وكثير من المفسرين.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِنْ سَيِّئَاتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ ﴾ أي على قتال قريش تحت الشجرة ﴿ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ أي أن مبايعتك هي مبايعة الله، لأن المقصود توثيق العهد، بمراعاة أوامره ونواهيه، وأصل البيعة العقد الذي يعقده الإنسان على نفسه، من بذل الطاعة للإمام، والوفاء بالعهد، والمراد بهذه البيعة «بيعة الرضوان» بالحديبية، وفي هذا تشريف للنبي ﷺ حيث جعل مبايعته بمنزلة مبايعة الله عز وجل ﴿ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أي نصرته إياهم فوق نصرهم إياه، ويد رسول الله التي تعلو أيدي المبايعين كأنها يد الله (١)، كما قال سبحانه: ﴿ من يطع الرسول فقد أطاع الله ﴾ فهو تعالى المبايع بواسطة رسوله ﷺ، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: بايعنا رسول الله ﷺ تحت الشجرة، فما نكث أحدٌ منا ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ﴾ أي فمن نقض عهده، فإنما يعود ضرر نكثه على نفسه ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ ﴾ أي ومن وفى بعهده ﴿ فَمِنْ سَيِّئَاتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ هو الجنة.

﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِالسِّنْتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ .

﴿ سَيَقُولُ لَكَ ﴾ إذا رجعت من الحديبية ﴿ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ ﴾ أي

(١) قال ابن كثير: أي هو تعالى حاضر معهم، يسمع أقوالهم، ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى المبايع بواسطة رسوله ﷺ (أنظر مختصر تفسير ابن كثير ٣/٣٤٢).

المتخلفون عن الخروج معك، وهم أعراب غفار، ومزينة، وجهينة، وأشجع، تخلفوا عن رسول الله ﷺ، حين استنفر من حول المدينة من الأعراب، ليخرجوا معه عند إرادته المسير إلى مكة، عام الحديبية معتمراً، حذراً من قريش أن يتعرضوا له بحرب، أو يصدّوه عن البيت، وأحرم ﷺ وساق معه الهدى، ليعلم أهل مكة أنه لا يريد الحرب، فقال المتخلفون: يذهب إلى قوم غزوه في عُقر داره، وقتلوا أصحابه، وظنوا أنه يهلك، فلا ينقلب إلى المدينة، فأوحى الله تعالى إليه ﷺ بما قالوا: وبما تعلّوا به، ومنه قولهم ﴿ شَغَلْتَنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا ﴾ ولم يكن من يخلفنا فيهم ويحميهم ﴿ فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ﴾ الله تعالى، ليغفر لنا تخلفنا عنك، حيث لم يكن ذلك باختيار، بل عن اضطرار، فأكذبهم الله تعالى فقال ﴿ يَقُولُونَ يَا لَيْسَ لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ أي إن الذي خلفهم ليس ما يقولون، وإنما هو النفاق، والشك في الدين، فطلبهم الاستغفار أيضاً ليس بصادق عن حقيقته ﴿ قُلْ ﴾ رداً لهم عند اعتذارهم إليك ﴿ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ﴾ أي فمن يقدر على شيء من النفع ﴿ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا ﴾ أي ما يضركم من هلاك الأهل والمال، حتى تخلفوا عن الخروج لحفظهما، ودفع الضرر عنهما ﴿ أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعاً ﴾ أي ومن يقدر على شيء من الضرر، إن أراد بكم ما ينفعكم من حفظ أموالكم وأهلكم؟ فأى حاجة إلى التخلف، لأجل القيام بحفظهما؟ وهذا تحقيق للحق، ورد لهم بموجب ظاهر مقاتلهم الكاذبة ﴿ بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ أي ليس الأمر كما تقولون، بل كان الله عالماً بما تعملون، مطلعاً على أخباركم.

﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزَيَّبَ لَكُمْ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴾ ﴿١٢﴾ .

﴿ بَلْ ظَنَنْتُمْ ﴾ الخ بدل مفسر لما فيه الإبهام، أي بل ظننتم ﴿ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا ﴾ بأن يستأصلهم المشركون بالمرة، فخشيتم إن كنتم معهم أن يصيبكم ما أصابهم، فلاجل ذلك تخلفتم، لا

كما ذكرتم ﴿وَرَبِّكَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ وقبلتموه، واشتغلتم بشأن أنفسكم، غير مباليين بهم، لأن الشبهة قد يزينها الشيطان للإنسان كما فعل بكم ﴿وَوَظَنْتُمْ ظَنَّكَ السَّوْءَ﴾ المراد به إما الظن الأول، والتكرير لتشديد التوبيخ، والتسجيل عليه بالسوء، أو ما يعمّه وغيره من الظنون الفاسدة ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ أي هالكين عند الله، مستوجبين لسخطه وعقابه.

﴿وَمَنْ لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ (١٣).

﴿وَمَنْ لَّمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي ومن لم يعتقد بالله وبرسوله بطريق الصدق والإخلاص ﴿فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا﴾ أي هيأنا لهم ناراً حامية مسعرة، تحرق القلوب والجلود، وإتما وصفهم بالكفر، إيذاناً بأن من لم يجمع بين الإيمان بالله ورسوله فهو كافر، وأنه مستوجب للسعير بكفره، بين الله تعالى بأن ظنهم الفاسد يفضي إلى الكفر، وحرّضهم على الإيمان والتوبة من ذلك الظن السيئ.

﴿وَاللَّهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (١٤).

﴿وَاللَّهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وما فيهما يتصرف في الكل كيف يشاء ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ من غير دخل لأحد في شيء منهما، وجوداً وعدماً، وفيه حسم لأطماعهم في استغفاره ﷻ لهم ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ مبالغاً في المغفرة والرحمة لمن يشاء.

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْنُدُونَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١٥).

﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ﴾ أي المذكورون ﴿إِذَا أَنْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِنَأْخُذُوهَا﴾ أي مغانم خيبر، لتحوزوها، حسبما وعدكم إياها ﴿ذُرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ إلى خيبر ونشهد معكم قتال أهلها، حيث كان لهم طمع في الغنيمة، أوضح الله تعالى كذبهم بهذه الآية، حيث لا يشتغلون بأموالهم وأهليهم في هذا ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ بأن يشاركوا في الغنائم، التي خصها أهل الحديبية، فإنه ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي الحجة من سنة ست ثم غزا خيبر في أوائل المحرم ففتحها، وغنم أموالاً كثيرة خصّها بهم، حسبما أمر الله تعالى، فالمراد وعده تعالى بغنائم خيبر لأهل الحديبية ﴿قُلْ﴾ إقناطاً لهم ﴿لَنْ تَتَّبِعُونَا﴾ أي لا تتبعونا، فإنه نفي في معنى النهي للمبالغة ﴿كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أي عند الانصراف من الحديبية ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ للمؤمنين عند سماع هذا النهي ﴿بَلْ تَحَسَّدُونَنَا﴾ أي ليس ذلك النهي حكم الله، بل تحسدوننا أن نشارككم في الغنائم ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي لا يفهمون ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ إلا فهماً قليلاً، وهو حرصهم على حطام الدنيا، وهذا رد لقولهم، ووصف لهم بالجهل في أمور الدين.

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقْتَلُونَ بِهِمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ﴾ كرر ذكرهم بهذا العنوان، مبالغة في ذمهم، وإشعاراً بشناعة التخلف ﴿مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعُونَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ هم بنو حنيفة قوم مسيلمة الكذاب، ﴿تُقْتَلُونَ بِهِمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أي يكون أحد الأمرين: إما المقاتلة أبداً، أو الإسلام لا غير ﴿فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو الغنيمة في الدنيا، والجنة في الآخرة ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا﴾ عن الدعوة ﴿كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ في الحديبية ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لتضاعف جرمكم، بتكرير التخلف والكذب

في الأقوال. ولما نزلت هذه الآية، قال أهل الأعذار كيف حالنا يا رسول الله؟ فأنزل الله.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَْعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾.

﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ﴾ أي في التخلف عن الغزو، لما بهم من العذر، فإن التكليف يدور على الاستطاعة ﴿وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾ وفي نفي الحرج عن الطوائف المعدودة، مزيد اعتناء بأمرهم، لا في سائر الأعضاء، فلا مانع في الكر والفر ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما ذكر من الأوامر والنواهي ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾ عن الطاعة ﴿يَْعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي موجعاً مؤلماً.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾.

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ هم الذين بايعوا رسول الله على أن يناجزوا قريشاً ولا يفروا، وبهذه الآية سميت «بيعة الرضوان» روي أنه ﷺ لما نزل الحديبية بعث عثمان بن عفان إلى أهل مكة فأخبرهم أنه ﷺ لم يأت لحرب، وإنما جاء زائراً للبيت الشريف، فوَقَرُوهُ وقالوا لو شئت أن تطوف بالبيت فافعل، فقال: ما كنت لأطوف قبل أن يطوف رسول الله ﷺ، واحتبس عندهم، فأرجف بأنهم قتلوه فقال ﷺ: «لا نبرحُ حتى نناجز القوم» ودعا الناس إلى البيعة فبايعوه تحت الشجرة، على أن يقاتلوا قريشاً ولا يفروا، وكانوا ألفاً وخمسة مائة وخمسة وعشرين، عن جابر رضي الله عنه قال: قال الرسول ﷺ: «لا يدخل النار

أحد ممن بايع تحت الشجرة»^(١) ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ أي من الإخلاص لله ولرسوله ﴿فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي فأنزل الطمأنينة والأمن، وسكون النفس بالربط على قلوبهم، وقيل بالصلح ﴿وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ هو فتح خيبر.

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾^(١٩).

﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا﴾ أي وأكرمهم بغنائم كثيرة من خيبر ينالونها ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي منيعاً لا يُغالب، مراعيًا لمقتضى الحكمة في أحكامه وقضاياه، وفيه إشارة إلى كثرة الفتوحات التي ستكون.

﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾^(٢٠).

﴿وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً﴾ وهو ما يفئده الله على المؤمنين إلى يوم القيامة ﴿تَأْخُذُونَهَا﴾ في أوقاتها المقدرة لكل واحدة منها ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ أي غنائم خيبر ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ أي أيدي أهل خيبر وحلفائهم من بني أسد، وغطفان، حيث جاؤوا لنصرتهم، فقذف الله في قلوبهم الرعب فنكصوا ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أمانة يعرفون بها صدق رسول الله ﷺ، في وعده إياهم، ما ذكر من المغانم، وفتح مكة، ودخول المسجد الحرام ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ ويزيدكم بصيرة و يقيناً، وثقةً بفضل الله، وللتوكل عليه.

﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾^(٢١).

(١) أخرجه مسلم.

﴿وَأُخْرَى﴾ أي ومغانم أخرى ﴿لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾ وهي مغانم هوازن في غزوة حنين، ووصفها بعدم القدرة عليها لما كان فيها من الجولة ﴿فَدَا حَاطَ اللَّهُ بِهَا﴾ أي استولى عليها بقدرته تعالى ووهبها لكم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ لأن قدرته ذاتية، لا تختص بشيء دون شيء.

﴿وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﴿٢٢﴾ .

﴿وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي أهل مكة، ولم يقع الصلح بينكم وبينهم ﴿لَوَلَّوْا الْأَدْبَرَ﴾ منهزمين ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا﴾ يحرسهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ ينصرهم .

﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ ﴿٢٣﴾ .

﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي سنَّ الله تعالى غلبة أنبيائه سنة قديمة، فيمن مضى من الأمم، وهو قوله تعالى: ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ تغييراً، لأنَّ سنته تعالى لا تتبدل ولا تتغير .

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ ﴿٢٤﴾ .

﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي أيدي كفار مكة ﴿عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ أي في داخلها ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ وذلك أن عكرمة بن أبي جهل خرج في خمسمائة إلى الحديبية، فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد على جند، فهزمهم حتى أدخلهم حيطان مكة ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من مقاتلتهم، والكفَّ عنهم، لتعظيم البيت الحرام ﴿بَصِيرًا﴾ فيجازيكم بذلك ويجازيهم .

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَىٰ مَعَكُوفًا ۖ أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّارْتَدَّ عَنْكُمْ سِوَىٰ مَا كَفَرُوا ۚ وَكَذَلِكَ تُصَيِّبُكَ ۖ فَتَصِيبُكُم مِّنْهُمْ مَّعْرَةٌ بَٰعِثٌ لِّدُخُلِ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۖ ﴾

﴿ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدَىٰ مَعَكُوفًا ﴾ حال من الهدي أي محبوساً ﴿ أَنْ يَبْلُغَ مَحَلَّهُمْ ﴾ أي من أن يبلغ مكانه، الذي يحل فيه نحره، وبه استدل أبو حنيفة على أن المحصر محل هديه الحرم، روي أن خيامه ﷺ كانت في الحديبية، ومصلاه في الحرم، وهناك نحرت هداياه ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّارْتَدَّ عَنْكُمْ سِوَىٰ مَا كَفَرُوا ۚ وَكَذَلِكَ تُصَيِّبُكَ ۖ ﴾ لم تعرفوهم بأعيانهم لاختلاطهم بالمشركين ﴿ أَنْ تَطَّوَّهُمْ ﴾ أن توقعوا بهم وتقتلوا منهم ﴿ فَتَصِيبُكُم مِّنْهُمْ ﴾ أي من جهتهم ﴿ مَّعْرَةٌ ﴾ أي مشقة ومكره، ويلحقكم ذنب بقتلهم، والمعرة: الإثم ﴿ بَٰعِثٌ لِّدُخُلِ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ ﴾ أي غير عالمين بهم، وجواب «لولا» محذوف لدلالة الكلام عليه، والمعنى: لولا كراهة أن تهلكوا أناساً من المؤمنين المؤمنات بين الكافرين، لما كفَّ أيديكم عنهم ﴿ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۚ مَنْ يَشَاءُ ﴾ وهم المؤمنون فإنهم كانوا خارجين من الرحمة الدنيوية التي من جملتها الأمن، وأما الرحمة الآخروية فهم وإن كانوا غير محرومين منها، لكنهم قاصرون في إقامة مراسم العبادة كما ينبغي، فتوفيقهم لإقامتها على الوجه الأتم إدخال لهم في الرحمة الآخروية ﴿ لَوْ تَزَيَّلُوا ﴾ لو تميز المسلمون من الكافرين ﴿ لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ بقتل مقاتلتهم، وسبي ذراريهم.

﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۖ ﴾

﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي كفره قريش، فوضع الموصول موضع ضميرهم لدمهم ﴿ فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ ﴾ الأنفة والتكبر، أي جعلوها ثابتة راسخة في قلوبهم ﴿ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ ﴾ بدل من الحمية، أي حمية الملة الجاهلية ﴿ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي الطمأنينة والوقار على قلب الرسول والمؤمنين، ولم تلحقهم العصبية الجاهلية كما لحقت المشركين.

روي أن رسول الله ﷺ لما نزل الحديبية، بعثت قريش «سهل بن عمير وحويطب، ومكرز» على أن يعرضوا على النبي ﷺ، أن يرجع من عامه ذلك، على أن تخلي له قريش مكة من العام القابل ثلاثة أيام، ففعل ذلك، وكتبوا بينهم كتاباً، فقال ﷺ لعلي اكتب: «باسم الله الرحمن الرحيم» فقالوا: لا نعرف هذا!! اكتب: «باسمك اللهم» ثم قال له: «اكتب هذا ما صالح رسول الله أهل مكة»، فقالوا: لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت، اكتب هذا ما صالح محمد بن عبد الله أهل مكة فقال ﷺ، اكتب ما يريدون»، فهم المؤمنون أن يأبوا ذلك، ويبطشوا بهم، فأنزل الله السكينة عليهم، فتوقروا وتحملوا حتى لا يدخلهم ما دخلهم من الحمية ﴿ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ﴾ أي ألهمهم الثبات على كلمة الشهادة: «لا إله إلا الله» والإخلاص والوفاء لها بطاعة الله والرسول ﷺ، وفي الآية لطائف قال الله تعالى في الكافر: «جعل» وفي حق المؤمن «أنزل» إشارة إلى أن الحمية في نفسها مذمومة، وبالإضافة إلى الجاهلية، تزداد قبحاً، وكانت مجعولة في الحال، وأما السكينة فكانت كالمحفوظة في خزانة الرحمة، فأنزلها الله فهي حسنة، وإضافة الله فيها أحسن، فالله تعالى أنزل في مقابلة حمية الكافرين، على المؤمنين سكينته حتى لم يغضبوا، ويتحلوا بالصبر، فهو من فضل الله تعالى ﴿ وَكَانُوا ﴾ أي المؤمنون ﴿ أَحَقَّ بِهَا ﴾ من غيرهم ﴿ وَأَهْلَهَا ﴾ أي المستأهلين لها، لأن الله تعالى اختار لدينه وصحبه نبيه، أهل الخير والصلاح ﴿ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ فيعلم كل شيء فيسوقه إلى مستحقه.

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ ﴿٢٧﴾ .

﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا﴾ أي صدقه في رؤياه ولم يكذبه، روي أن رسول الله ﷺ رأى قبل خروجه إلى الحديبية، كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين، وقد حلقوا رؤوسهم وقصروا، فقصر الرؤيا على أصحابه، ولم يعين له وقتاً وفرحوا وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم، فلمّا تأخر ذلك، قال «عبد الله بن أبي» وأصحابه المنافقون: ما حلقتنا ولا قصرنا، ولا رأينا المسجد الحرام؟! فنزلت الآية رداً عليهم أي أراه الرؤيا الصادقة ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي صدقاً ملتبساً بالحق، ليست من قبيل الأضغاث والأحلام ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ جواب قسم محذوف، أي والله لتدخلن ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ تعليق الدخول بالمشيئة لتعليم العباد الأدب في الحديث ﴿ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أي محلقة بعضكم، ومقصراً آخرون ﴿لَا تَخَافُونَ﴾ أي بعد ذلك من عدو في رجوعكم، وقوله ﴿آمنين﴾ في حال الإحرام ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ أي فعلم عقيب ما أراه الرؤيا الصادقة، ما لم تعلموا أنتم من الحكمة، الداعية إلى تقديم ما يشهد بالصدق علماً فعلياً ﴿فَجَعَلَ﴾ لأجله ﴿مِنْ دُونِ ذَلِكَ﴾ أي من دون تحقق دخول المسجد الحرام ﴿فَتَحَاقَرِيبًا﴾ وهو فتح خبير، والمراد إنجازه من غير تسويق، ليستدل به على صدق الرؤيا، ولتستريح إليه قلوب المؤمنين.

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ ﴿٢٨﴾ .

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ﴾ أي أرسله بالهداية التامة، الشاملة الكاملة، هادياً للناس إلى سبيل السعادة والنجاة ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ ودين

الإسلام ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ ليعليه على الأديان كلها، ويرفعه على سائر الشرائع السماوية، وفيه فضل تأكيد، لما وعدهم به من الفتح، وتوطين لنفوس المؤمنين على أنه سبحانه سيفتح لهم البلاد، وقد حقق ذلك سبحانه ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أن محمداً ﷺ رسوله، وعلى أن دين الإسلام حق.

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرْتَهُمُ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيَّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْعَهُ فَتَازَرُوا فَاسْتَفْظَلُوا فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوْقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾.

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي ذلك الرسول، المرسل بالهدى ودين الحق، هو محمد رسول الله ﷺ ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ أي أصحابه ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ أشداء جمع شديد، ورحماء جمع رحيم، والمعنى أنهم يظهرون لمن خالف دينهم بالشدّة والصلابة، ولمن وافقهم في الدين بالرحمة، والرأفة، كقوله تعالى: ﴿أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿تَرْتَهُمُ رُكْعًا سُجَّدًا﴾ تشاهددهم حال كونهم راكعين ساجدين، لمواظبتهم على الصلاة في أكثر أوقاتهم ﴿يَبْتَغُونَ﴾ يطلبون ﴿فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ أي ثواباً ورضاء ﴿سِيَّمَاهُمْ﴾ أي علامتهم ﴿فِي وُجُوهِهِمْ﴾ في جباههم ﴿مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ من التأثير الذي يؤثره كثرة السجود، فقد استنارت وجوههم في النهار، من كثرة صلاتهم بالليل، مع الخشوع والتواضع ﴿ذَلِكَ﴾ أي وصفهم العجيب الشأن، الجاري في الغرابة مجرى الأمثال ﴿مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ أي وصفهم في التوراة: الشدة على الكفار، والرحمة بالمؤمنين، وكثرة الركوع والسجود ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ تكرير المثل لتأكيد غرابته ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْعَهُ﴾ أي كزرع أخرج فراخه ﴿فَتَازَرُوا﴾ فقوّاه حتى صار غليظاً، من

المؤازرة بمعنى المعاونة ﴿فَاسْتَعَاظَ﴾ فصار غليظاً بعدما كان دقيقاً ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوْقِهِ﴾ أي فاستقام على أصوله ﴿يُعِجِبُ الزَّرْعَ﴾ بقوته، وكثافته، وغلظه، وحسن منظره، وهذا مثلٌ ضربه الله تعالى لأصحابه ﷺ، كانوا قلَّةً في بدء الإسلام، ثم كثروا واستحكموا، فترقى أمرهم يوماً فيوماً، بحيث أعجب الناس شأنهم ودينهم، وكامل قوتهم، وجاء في الإنجيل «سيخرج قومٌ ينبتون نبات الزرع، يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر» ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارُ﴾ علة لما دل عليه تشبيههم بالزرع، من نمائهم واستحكامهم، أي ليدخل الغيظ إلى قلوب الكفار بهم ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ فإن الكفار إذا سمعوا بما أعد الله للمؤمنين في الآخرة، مع ما لهم في الدنيا من العزة والكرامة، غاظهم ذلك أشد الغيظ، و«مِنْ» للبيان وقال ابن جريج: من الشطأ الذي أخرجه الزرع، الداخلون في الإسلام، إلى يوم القيامة، روي عن عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم»^(١) وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أُحُدٍ ذهباً، ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»^(٢).

والحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على محمد سيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الفتح»

* * *

(١) هذا طرف من حديث أخرجه البخاري.

(٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم.

سُورَةُ الْحَجَرَاتِ

مدنية وهي ثمان عشرة آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۗ وَانْقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ وصفهم بالإيمان لتنشطهم، والإيدان بأن ما في النداء يستدعي مزيد اعتنائهم، لأن الإيمان داع إلى المحافظة عليه، ووازع عن الإخلال به، وفي هذه السورة إرشاد المؤمنين إلى مكارم الأخلاق ﴿ لَا تَقْدُمُوا ﴾ أي لا تقدّموا أمراً من الأمور، ولا تشيروا برأي من الآراء ﴿ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ أي لا تفعلوا شيئاً، ولا تقطعوا بأمر قبل أن يحكم الله ورسوله به، كما إذا عرضت مسألة في مجلسه ﷺ لا يسبقونه بالجواب، وإذا مشوا معه لا يمشون أمامه، وإذا حضر الطعام لا يبتدئون بالأكل قبله، تعظيماً لمقامه الشريف ﷺ (١) ﴿ وَانْقُوا اللَّهَ ﴾ في كل ما تأتون وما تدرّون، من الأقوال والأفعال ﴿ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ ﴾ لأقوالكم ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بأفعالكم.

(١) في الآية الكريمة استعارة لطيفة، حيث شبّه حال المؤمنين مع رسول الله عليه الصلاة =

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ ﴿٢﴾ .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ إعادة النداء للمبالغة في الإيقاظ، بشأنه ﴿ لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ﴾ أي لا تبلغوا بأصواتكم حداً يبلغه ﷺ بصوته، بل ينبغي أن تغضوا منها، بحيث يكون كلامه عالياً على كلامكم، لأن رفع الصوت دليل على قلة الاحتشام، وترك الاحترام، ومن يرفع صوته عند غيره، يجعل لنفسه اعتباراً زائداً وعظمة ﴿ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ ﴾ إذا كلمتموه ﴿ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ أي جهراً كأنناً كالجهر الجاري فيما بينكم، بل اجعلوا أصواتكم أخفض من صوته ﷺ، وتعهدوا في المخاطبة الحديث القريب من الهمس، كما هو الدأب عند مخاطبة المهيب المعظم، وحافظوا على مراعاة مقام النبوة، ولا تخاطبوه باسمه وكنيته، بل بالنبي والرسول، فقولوا يا نبي الله، ويا رسول الله ﴿ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ ﴾ أي خشية أن تبطل أعمالكم الصالحة وتضيع، بسبب عدم أدبكم مع الرسول، المبعوث رحمة للعالمين وعلّة للنهي، أي لا تجهروا خشية ﴿ أَن تَحْبَطَ ﴾، وليس المراد بما نهي عنه ما يقارنه الاستخفاف والاستهانة، فإن ذلك كفر، بل ما يكون أثناء المحاوره، من الرفع والجهر، حسبما يعرب عنه قوله تعالى: ﴿ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ﴾ ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ أي بحبوطها، وفيه مزيد تحذير لهم مما نُهوا عنه.

والسلام، بحال ملكٍ عظيم كان يمشي مع الحاشية والأتباع، فتقدم للسير أمامه بعض أفراد الحاشية، وكان الأدب يقتضي أن يسيروا خلفه لا أمامه، وهكذا شأن الصحابة مع رسول الله عليه السلام لا ينبغي لهم أن يعرضوا أمراً، أو يقطعوا حكماً في حضرة النبي ﷺ، ولهذا جاء الأمر عاماً يشمل كل شأن من شؤون الحياة.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَعْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ ﴿٣﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَعْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ أي يخفضونها في مجلسه، مراعاة للأدب، أو خشية من مخالفة النهي ﴿ أُولَئِكَ ﴾ إشارة إلى المتخلفين بالأدب من الصحابة الكرام، الذين يخفضون أصواتهم في مجلس الرسول عليه السلام ﴿ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ﴾ أي جربها للتقوى، وأخلصها للتقوى وجعلها صفة راسخة فيها، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمُ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ ﴿ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ﴾ لذنوبهم ﴿ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ لا يقادر قدره لغضهم أصواتهم، وسائر طاعاتهم.

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ ﴿٤﴾ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ ﴾ أي من خارجها ومن خلفها، والمراد بها حجرات أمهات المؤمنين، ومناداتهم أن جماعة من الأعراب، جاؤوا إلى رسول الله ﷺ وهو راقد وقت الظهر، فنادوه من وراء الحجرات: يا محمد اخرج إلينا، حتى أيقظوه من نومه، فخرج إليهم ﷺ ﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ إذ لو كان لهم عقل، لما تجاسروا على هذه المرتبة من سوء الأدب.

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ ﴿٥﴾ .

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا ﴾ أي لو ثبت صبرهم وانتظارهم ﴿ حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ ﴾ أي تفاتهم بالكلام، وفيه بيان لحسن الأدب ﴿ لَكَانَ ﴾ الصبر المذكور ﴿ خَيْرًا لَهُمْ ﴾ من الاستعجال، لما فيه من حسن الأدب، وتعظيم الرسول، الموجبين للثناء والثواب ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ بليغ المغفرة والرحمة، إن تابوا وأصلحوا.

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِحُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ ﴿٦﴾ .

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ ﴾ المجيء بالنبا الكاذب، يورث كون الإنسان فاسقاً ﴿ فَتَبَيَّنُوا ﴾ أي فتعرفوا وتفحصوا الأمر، روي أنه ﷺ بعث الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق ليأتي بزكاة أهلها، فلما سمعوا به خرجوا لاستقباله، فحسب أنهم مقاتلوه فرجع وقال لرسول الله ﷺ: قد ارتدوا، ومنعوا الزكاة، فهم ﷺ بقتالهم، فنزلت ﴿ أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ ﴾ ملتبسين بجهالة حالهم ﴿ فَتُصِحُّوا ﴾ أي تصيروا بعد ظهور براءتهم ﴿ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ ﴾ في حقهم ﴿ نَادِمِينَ ﴾ مغتمين غمماً لازماً، متمنين أنه لم يقع، وتنكير الفاسق، والنبأ للتعميم، كأنه قال: أي فاسق جاءكم، بأي نبأ فتبينوا، أي تطلبوا انكشاف الحقيقة وتثبتوا من صحة الخبر.

﴿ وَأَعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّشِدُونَ ﴾ ﴿٧﴾ .

﴿ وَأَعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﴾ أي فانتقوا الله أن تقولوا باطلاً، فإن الله تعالى يخبره ففتضحوا ﴿ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ ﴾ أي لو أطاعكم في أغلب ما تشيرون عليه، لوقعتم في الجهد والمشقة، المؤدي إلى الهلاك، وفيه إيذان بأن بعضهم زينوا لرسول الله ﷺ الإيقاع ببني المصطلق، تصديقاً لقول الوليد، وأنه ﷺ لم يطع رأيهم ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ ﴾ أي ولكنه تعالى جعل الإيمان محبوباً لديكم ﴿ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ أي وحسنه في قلوبكم حتى رسخ حبه فيها، وأصبح طبيعة وسجية ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴾ أي وبغض إلى نفوسكم أنواع الضلال، من المعاصي

والآثام مما لا خير فيه، حتى اجتنبتموها ﴿أُولَئِكَ هُمُ الرَّشِدُونَ﴾
الموافقون للرشد الموفقون لفعل الخيرات.

﴿فَضَلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ حَكِيمٌ﴾

﴿فَضَلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ أي تفضلاً منه تعالى عليكم حبب إليكم
الإيمان، وكره إليكم العصيان ﴿وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ مبالغ في العلم، فيعلم أحوال
المؤمنين وما بينهم من التفاضل ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل ما يفعل بموجب الحكمة
والمصلحة.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغْت إِحْدَهُمَا عَلَى
الْآخَرَى فَقْبِلُوا الَّتِي تَبغى حَتَّى تَفِىءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا
بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾ أي تقاتلوا، والجمع باعتبار المعنى
﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ بالنصح والدعاء إلى حكم الله ﴿فَإِن بَغْت إِحْدَهُمَا عَلَى
الْآخَرَى﴾ ولم تتأثر بالنصيحة ﴿فَقْبِلُوا الَّتِي تَبغى حَتَّى تَفِىءَ﴾ أي ترجع ﴿إِلَىٰ أَمْرِ
اللَّهِ﴾ إلى حكمه، وإلى ما أمر به ﴿فَإِن فَاءَتْ﴾ إليه واقتلعت عن القتال
حذراً من قتالكم ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ﴾ بفصل ما بينهما على حكم الله
تعالى، ولا تكتفوا بمجرد متاركتهما، عسى يكون بينهما قتال في وقت
آخر، وتقبيد الإصلاح بالعدل، لأنه مظنة الحيف، لوقوعه بعد المقاتلة،
وقد أكد ذلك حيث قال: ﴿وَأَقْسِطُوا﴾ أي اعدلوا في كل ما تأتون وما
تذرون ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ فيجازيهم أحسن الجزاء، وفيها دلالة على
أن الباغي المقاتل، لا يخرج بالبغي عن الإيمان، وأنه يجب معاونة من

بُغِي عليه، بعد تقديم النصح والسعي في المصالحة، ولفظة «إن» إشارة إلى ندرة الوقوع بين المسلمين، وإلى أنه ينبغي أن لا يقع منهم، ولم يقل «منكم» تبعيداً لهم عنهم، وقال ههنا (بالعدل) ولم يقل هناك فأصلحوا بالعدل، لأن الإصلاح هناك بإزالة الاقتتال، وذلك يكون بالنصيحة، أو التهديد والزجر، والإصلاح ههنا بإزالة آثار القتل من ضمان المتلفات، وهو حكم، فقال: (بالعدل) لئلا يؤدي إلى ثوران الفتنة بينهما مرة أخرى.

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ أي إنهم منتسبون إلى أصل واحد، وهو الإيمان الموجب للحياة الأبدية ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ لأن الأخوة الدينية، موجبة للإصلاح، وتخصيصُ الاثنين بالذكر، لإثبات وجوب الإصلاح فيما فوق ذلك بطريق الأولوية، لتضاعف الفتنة والفساد فيه، فالمعنى: ولو كان بين الرجلين من المسلمين أدنى اختلاف، فاسعوا في الإصلاح ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ في كل ما تأتون وما تذررون من الأمور التي من جملتها ما أمرتم به من الإصلاح ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ راجين أن ترحموا على تقواكم. عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يُسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة»^(١).

(١) أخرجه أبو داود في الأدب رقم ٤٨٩٣ والترمذي رقم ١٤٨٦ في الحدود.

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِنْ نِسَاءِ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ ۚ يَسُّوهُمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ ﴾ .

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرُونَ مِنْ قَوْمٍ ﴾ أي جماعة منكم ﴿ مِنْ قَوْمٍ ﴾ آخرين منكم، والقوم هنا الرجال خاصة، إذ لو كانت النساء داخلة في قوم، لم يقل ﴿ وَلَا نِسَاءً ﴾ ﴿ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ ﴾ أي عسى أن يكون المسخور منهم عند الله، خيراً من الساخرين، ويمكن أن يقال المراد من قوله: ﴿ أَنْ يَكُونُوا ﴾ أن يصيروا، فإنَّ من استحقق إنساناً لفقره، أو ضعفه، لا يأمن أن يفتقر هو، ويستغني الفقير، ويضعف هو، ويقوى الضعيف ﴿ وَلَا نِسَاءً مِنْ نِسَاءِ ﴾ أي ولا تسخر نساء مؤمنات من نساء مؤمنات^(١) ﴿ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ ﴾ أي المسخور منهن ﴿ خَيْرًا مِنْهُنَّ ﴾ أي من الساخرات، فإن مناط الخيرية ليس ما يظهر للناس، من الصور والأشكال، إنما هو الأمور الكامنة في القلوب، ولا يعلم ما في القلوب إلا علام الغيوب، كما جاء في الحديث الشريف «رَبِّ أَشْعَثُ أَغْبَرُ، مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبره»^(٢) ﴿ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ أي ولا يعب بعضكم على بعض، فإن المؤمنين كنفس واحدة، فإذا عاب المؤمن مؤمناً، كأنما عاب نفسه، ﴿ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ ﴾ ولا يدع

(١) لم يقل تعالى: لا يسخر رجل من امرأة، ولا امرأة من رجل، وإنما قال: ﴿ قوم من قوم... ﴾ ولا نساء من نساء ﴿ أي لا يسخر رجال من رجال، ولا نساء من نساء، للإشعار بأن مجالسة الرجل للمرأة مستقبح شرعاً، لما يجزئ إليه من المفساد، فالمجتمع الإسلامي نظيف، لا اختلاط فيه بين الذكور والإناث كما هو الحال عند غير المسلمين، ولأن الإنسان إنما يعيب من يلبسه ويخالطه، فالرجال يلتقون بالرجال، وربما عاب بعضهم بعضاً، والنساء بالنساء، ولذلك جاء التحذير للرجال والنساء، فافهم أسرار الكتاب العزيز.

(٢) الحديث أخرجه مسلم رقم ٢٦٢٢ .

بعضكم بعضاً بلقب السوء، فإن النبز مختصٌّ به عرفاً، كمن يعيب غيره بالقصر، أو يهزأ عليه فيقول: يا أقرع أو يا أعرج، فالتلقب المنهني عنه، هو ما يتداخل المدعو به كراهةً، لكونه ذماً له، فأماً ما يحبه فلا بأس به، كما قيل لأبي بكر رضي الله عنه: الصديق، ولعمر رضي الله عنه: الفاروق، ولم يقل تعالى «ولا تلامزوا» لأن اللماز إذا لمز، فالملموز قد لا يجد في الحال عيباً يلزمه به، وأماً في النبز وهو الرمي فلا يعجز كل واحد عن الإتيان به، فإن من نبز غيره بالثور، وهو ينزّه بالحمار، وغير ذلك.

﴿بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْأَيْمَنِ﴾ الاسم هنا بمعنى «الذكر» يقال: طار اسمه في الناس بالكرم أو باللؤم؛ أي بش الذكر المرتفع للمؤمنين أن يذكروا بالفسوق، بعد دخولهم الإيمان واشتغالهم به، والمعنى: بش أن يسمى الإنسان فاسقاً بعد أن كان مؤمناً، بسبب هذه الأفعال، ويكون كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ وكان بعض الناس يقول في شتمه لمن أسلم من اليهود يا «يهودي» ويا فاسق، فنهوا عنه، وقيل: نزلت في «صفية بنت حبي» أتت رسول الله ﷺ فقالت: إن النساء يقرن لي بنت يهودي، فنزلت الآية (١) ﴿وَمَنْ لَّمْ يَنْبَ﴾ عما نهى عنه ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ بوضع العصيان موضع الطاعة، وتعريض النفس للعذاب.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا يَحْسَسُوهُ وَلَا يَفْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾

(١) أشار إلى ما رواه أحمد في المسند ١٢٦/٣ عن أنس بن مالك قال: بلغ صفية أن حفصة قالت لها: بنت يهودي، فبكت، فدخل عليها رسول الله ﷺ وهي تبكي، فقال: ما يبكيك؟ قال: قالت لي حفصة: أنت ابنة يهودي، فقال النبي ﷺ: إنك لابنة نبي - يريد موسى عليه السلام - وعمك لنبي - يريد هارون عليه السلام - وإنك لتحت نبي، فبم تفخر عليك؟ ثم قال: اتق الله يا حفصة. . الحديث.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتِنُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ أي ابتعدوا عن التهمة وإساءة الظن بالمؤمنين، وكونوا على جانب منه، وإبهام الكثير لإيجاب الاحتياط، والتأمل في كل ظن، فلا يسارع المؤمن بل يتأمل ويتحقق، قبل أن يظن السوء بأخيه المؤمن ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ تعليل للأمر بالاجتناب، أي إن في بعض الظن إثم يلحق صاحبه، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إياكم والظنَّ فإن الظنَّ أكذبُ الحديث، ولا تجسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخواناً، كما أمركم المسلمُ أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ههنا، التقوى ههنا، التقوى ههنا، (ويشير إلى صدره) بحسب امرئٍ من الشرِّ أن يحقر أخاه المسلم، كلُّ المسلم، على المسلم حرام: دمه، وعرضه، وماله»^(١) ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ ولا تبحثوا عن عورات المسلمين، والتجسس: التفتيش عن بواطن الأمور، وأكثر ما يقال في الشر، ومنه الجاسوس ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي لا يذكر بعضكم بعضاً بالسوء في غيبته، واغتابه اغتياًباً إذا ذكره بما يكره، والاسم الغيبة، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الغيبة؟ قلنا: الله ورسوله أعلم؟ قال: ذكرك أخاك بما يكره، قلتُ: أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته»^(٢) ﴿أَيُّحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾؟ تمثيلٌ وتصوير على أفحش وجه، وأشنعه، طبعاً، وشرعاً، مع مبالغات من فنون شتى، الاستفهام التقريري، وإسناد الفعل إلى أحد الأخوين (لحم أخيه) وتعليق المحبة بما هو في غاية الكراهة، وتمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان^(٣)، وجعل المأكل أحياناً للأكل، وكونه ميتاً، وتعقيب ذلك بقوله تعالى: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ تقريراً وتحقيقاً لذلك، أي

(١) أخرجه مسلم رقم ٢٥٦٤ والبخاري رقم ٦٠٦٥ وروى الترمذي بعضه رقم ١٩٢٨ .

(٢) أخرجه مسلم رقم ٢٥٨٩ باب تحريم الغيبة، «بهته»: أي قلت فيه البهتان وهو الباطل .

(٣) طرف من حديث أخرجه أبو داود رقم ٤٨٧٨ .

فتحقت كراهتكم له باستقامة العقل، فليتحقق أيضاً أن تكرهوا ما هو نظيره، من الغيبة باستقامة الدين، وفيه إشارة إلى أن عرض الإنسان، كلحمه ودمه، لأن قلبه يتألم إذا ذكر بسوء، كما يتألم جسده إذا قُطع لحمه، والعرض أشرف من اللحم^(١)، عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَمَّا عُرِجَ بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم ولحومهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم»^(٢) ﴿وَأَنْقُوا اللَّهَ﴾ بترك ما أمرتم باجتنابه، والندم على ما صدر عنكم من قبل ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ مبالغ في قبول التوبة، وإفاضة الرحمة، حيث يجعل التائب كمن لم يذنب، وإن كثرت ذنوبه، والكذب والافتراء هما في غاية القبح، فلم ينه عنهما اكتفاءً بقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ لأن وصفهم بالإيمان، يمنعهم عنهما، وهما دأب الكافر، وإنما منعهم عما يكثر وجوده في المسلمين.

﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾
 إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَىٰكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ﴾ أي من آدم وحواء، وخلقنا كل واحد منكم من أب وأم، فالكل سواء في ذلك، فلا وجه للتفاخر بالنسب، قيل: لَمَّا كان يوم الفتح، أمر رسول الله ﷺ بلالاً حتى علا على ظهر الكعبة وأذن، فقال بعض الناس: أما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذناً؟ فنزل جبريل فأخبر رسول الله ﷺ، فأنزل الله هذه الآية، وزجرهم

(١) جاء التعبير القرآني بأبدع التمثيل البياني، فقد مثل تعالى للمغتتاب بالشخص الذي جلس على ميتة ينهش من لحمها، وهذا اللحم أولاً لحم إنسان، وهذا الإنسان أخوه، ثم هو ميتة، فإن أكل لحم الميتة هو المتناهي في كراهة النفوس، ونفور الطباع، وبإله من تمثيل مريع، بلغ الذروة في القبح والشناعة، والفظاعة.
 (٢) الحديث أخرجه أبو داود رقم ٤٨٧٨ في الأدب.

عن التفاخر بالأنساب ﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ ﴾ الشعب: الجمع العظيم، المنتسبون إلى أصل واحد، سميت شعوباً لأن القبائل تتشعب منها كتشعب أغصان الشجرة، والشعبُ يجمع القبائل، والقبيلة هي الجماعة التي يربطها حسب أو نسب، وهي تجمع البطون والأفخاذ، ﴿ لَتَعَارَفُوا ﴾ ليعرف بعضكم بعضاً، ويعرف الإنسان نفسه فلا ينتسب أحد إلى غير آبائه، لا للتفاخر بالآباء، والتفاضل في الأنساب، والسخرية تفضي إلى التناكر ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتُمْ ﴾ تعليل للنهي عن التفاخر بالأنساب، كأنه قيل: إن الأكرم عند الله هو الأتقى، فإن تفاخرتم فتفاخروا بالتقوى، فإنها تكمل النفوس، وبها تتفاضل الأشخاص، وختم الآية بقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ أي يعلم التقى والشقى، والصالح والطالح، فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى.

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ﴾ أي بعض الأعراب، نزلت في نفر من بني أسد، قدموا المدينة في سنة جدب، فأظهروا الإسلام، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ أتيناك بأثقال وعيال، ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان، يريدون الصدقة، ويمثون عليه ﷺ ما فعلوا ﴿ ءَأَمَّا قُلْ ﴾ لهم ﴿ لَمْ تُؤْمِنُوا ﴾ إذ الإيمان هو التصديق مع طمأنينة القلب، ولم يحصل لكم ذلك، وإلا لما منتم بإيمانكم وأفعالكم!! وهذا كان معجزة للنبي ﷺ حيث أطلع الله رسوله على الغيب، وذلك كالتاريخ، لنزول الآية، لا للاختصاص بهم، لأن من أظهر فعل المتقين، وأراد أن يصير له ما للأتقياء من الإكرام، لا يحصل له ذلك، لأن التقوى من عمل القلب، والله تعالى خبير بما في الصدور ﴿ وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾ للاحتراز من النهي عن التلفظ بالإيمان، أي فإن كنتم

تقولون شيئاً، فقولوا أمراً عاماً، لا يلزم منه كذبكم، وهو أسلمنا، فإن الإسلام بمعنى الانقياد حصل ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي ولم يدخل الإيمان إلى قلوبكم، ولم تذوقوا حلاوته بعد^(١)، ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بالإخلاص، وترك النفاق، وفيه تحريض على الإيمان الصادق ﴿لَا يَلْتَكُمُ مِنْ أَعْمَالِكُمْ﴾ أي لا ينقصكم ﴿شَيْئاً﴾ من أجورها، يقال: لات يليت، ليتاً: إذا نقص ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ لما فرط من المطيعين ﴿رَحِيمٌ﴾ بالتفضل عليهم.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ ﴿١٥﴾ .

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ أي لم يشكوا ويتزلزلوا في إيمانهم، بل ثبتوا على اليقين، فهي كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي في طاعة الله على تكثير فنونها من العبادات البدنية والمالية ﴿أُولَئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر ﴿هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ الذين صدقوا في دعوى الإيمان لا غيرهم.

﴿قُلْ أَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿١٦﴾ .

﴿قُلْ أَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ بِدِينِكُمْ؟﴾ أي أتخبرونه بتصديق قلوبكم؟ والتعبير عنه بالتعليم لتشنيعهم ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ حال من مفعول «تُعَلِّمون» مؤكدة لتشنيعهم ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي مبالغ في

(١) قال الحافظ ابن كثير: وهؤلاء الأعراب المذكورون في هذه السورة ليسوا منافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحکم الإيمان في قلوبهم. فادعوا لأنفسهم مقاماً أعلى مما وصلوا إليه، فادبهم الله في ذلك، ولو كانوا منافقين لعُتِفوا وفضحوا - ا هـ.

العلم بجميع الأشياء، التي من جملتها ما أخفوه من غرض إظهارهم الإيمان، وفيه مزيد تجهيل، وتوبيخ لهم.

﴿ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿١٧﴾

﴿ يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ﴾ أي يعدون إسلامهم منةً عليك ﴿ قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ ﴾ أي لا تعدوا إسلامكم منة عليّ، فإن نفع ذلك عائد عليكم ﴿ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ أي لو صح ادعاؤكم بالإيمان، فله المنة عليكم، حيث بين لكم الطريق ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ في ادعاء الإيمان، وجوابه محذوف، يدل عليه ما قبله، أي فله المنة عليكم.

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿١٨﴾

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي ما غاب فيهما، فكيف يخفى عليه حالكم؟ ﴿ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ في سركم وعلانيتكم والله أعلم بمراده، والحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وأصحابه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الحجرات»

* * *

obeikandi.com

سُورَةُ ق

مكية وهي خمس وأربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾﴾

﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ المجيد أي ذي المجد والشرف على سائر الكتب، أو لأنه كلام المجيد جلّ وعلا، فهو ممجّد.

﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾﴾

﴿بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾ أي لأن جاءهم منذر منهم، أي من جنسهم، وهو إضراب عما ينبيء عنه جواب القسم المحذوف، كأنه قيل: والقرآن المجيد أنزلناه إليك، لتنذر به الناس ولم يؤمنوا به، وهو رجل منهم، عرفوا أمانته، وعدالته، وأصالته، ومن كان كذلك لم يكن إلا ناصحاً لقومه، خائفاً أن يناله مكروه، وإذا علم أن مخوفاً أظلمهم، لزمه أن ينذرهم، فكيف بما هو غاية المخاوف؟ ﴿فَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ تفسير لتعجبهم، أي هذا شيء في منتهى الغرابة والعجب.

﴿أءَ دَامِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾

﴿ إِذْ أَمِينًا وَكَأَنُّرَابًا ﴾ أي أحين نموت ونصير تراباً، نرجع إلى الحياة مرة ثانية، ونبعث بعد موتنا؟ ﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ أي ذلك رجوع مستحيل، بعيد غاية البعد.

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا نَنْقُصُ الْأَرْضَ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾

﴿ قَدْ عَلِمْنَا مَا نَنْقُصُ الْأَرْضَ مِنْهُمْ ﴾ رد لاستبعادهم، فإن علمه تعالى عام ولطيف، حتى انتهى إلى حيث علم ما تنقص الأرض من أجساد الموتى، ويعلم أجزاء كل واحد منهم، وقادر على الجمع والتأليف، فليس الرجوع منه بعيد ﴿ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴾ أي حافظ لتفاصيل الأشياء كلها، وهو اللوح المحفوظ، الذي أحصى تفصيل كل شيء، مكتوب موتهم، ومكثهم في القبر، ومبعثهم يوم القيامة، والحفيظ بمعنى «الحافظ» قد ورد في القرآن، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِحَفِيظٍ ﴾ أي بحافظ.

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيحٍ ﴾

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ ﴾ إضراب وانتقال، من بيان شناعتهم السابقة، إلى بيان ما هو أشنع منه وأفظع، وهو تكذيبهم للنبوة، الثابتة بالمعجزات الباهرة، وسخريتهم وتكذيبهم للقرآن الكريم ﴿ لَمَّا جَاءَهُمْ ﴾ حين جاءهم في أول وهلة، من غير تأمل وتفكر ﴿ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيحٍ ﴾ أي مضطرب، لا قرار له، حيث يقولون تارة: شاعر، وطوراً ساحر، ومرة كاهن، لا يثبتون على شيء واحد، وكان الواجب عليهم أن ينتقلوا من الشك إلى اليقين والقطع بصدقه، لعلمهم بأمانته، واجتنابه الكذب طول عمره بين أظهرهم، ولظهور المعجزات على يديه، فلما غيروا حصل الاضطراب.

﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ

فُرُوجٍ ﴿ ٦ ﴾

﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا ﴾؟ أي أغفلوا ولم ينظروا حين كفروا بالبعث؟ ﴿ إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ ﴾ بحيث يشاهدونها كل وقت ﴿ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا ﴾ أي رفعناها بغير عمد ﴿ وَزَيَّنَّاهَا ﴾ بما فيها من الكواكب المنيرة، المترتبة على نظام بديع ﴿ وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾ أي فتوق، لسلامتها من كل عيب وخلل، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِبْ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ (١)؟ .

﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾ (٧)

﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ﴾ بسطناها ﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوْسِيَ ﴾ جبلاً ثوابت ﴿ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ ﴾ صنف ﴿ بَهِيجٍ ﴾ حسنٌ يسرُّ به من رآه .

﴿ تَبَصَّرَةٌ وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ (٨)

﴿ تَبَصَّرَةٌ وَذِكْرَىٰ ﴾ أي فعلنا ما فعلنا تبصيراً وتذكيراً ﴿ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ أي راجع إلى ربه، متفكر في بدائع صنعه، والفرق بين التبصرة والتذكرة، هو أن فيها آيات مستمرة، منصوبة في مقابلة البصائر، كخلق السماء وزينتها، وآيات متجددة عند الناس، كإنبات كل زوج من أنواع الزروع .

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾ (٩)

﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا ﴾ أي كثير المنافع، فيه حياة كل شيء، وهو المطر ﴿ فَأَنْبَتْنَا بِهِ ﴾ أي بذلك الماء ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ كثيرة، أي أشجاراً ذوات ثمار ﴿ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴾ أي حب الزرع، الذي شأنه أن يُحصَد، البُرِّ، والشعير، وأمثالهما .

(١) سورة الأحقاف، آية: ٣٣ .

﴿ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴾ .

﴿ وَالنَّخْلَ ﴾ عطف على الجنات، وتخصيصها بالذكر لبيان فضلها على سائر الأشجار ﴿ بَاسِقَاتٍ ﴾ أي طوالاً مستويات، مرتفعات، يقال: بَسَقَتِ النخلةُ بسوقاً طال، فهي باسقة ﴿ لَهَا طَلْعٌ ﴾ هو ما يطلع من ثمر النخيل ﴿ نَضِيدٌ ﴾ مترابك بعضه على بعض، والمراد تراكم الطلع، أو كثرة ما فيه من الثمر، وفيه استدلالٌ بالأشجار، تنمو وتزيد، فكذلك بدن الإنسان بعد الموت، ينمو ويزيد.

﴿ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ .

﴿ رِزْقًا لِلْعِبَادِ ﴾ أي لرزقهم، علة لقوله تعالى: ﴿ فَأَنْبَتْنَا ﴾ وفي تعليقه بذلك، تنبيه على أن الواجب على العبد، أن يكون انتفاعه بذلك، من حيث التذكر والاستبصار، أهم وأقدم من تمتعه من حيث الرزق، ولهذا قال أولاً: ﴿ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ وقال ثانياً: ﴿ رِزْقًا لِلْعِبَادِ ﴾ مطلقاً، لأن الرزق حاصل لكل أحد، غير أن المنيب يأكل ذاكراً وشاكراً، وغيره يأكل كالأنعام ﴿ وَأَحْيَيْنَا بِهِ ﴾ أي بذلك الماء ﴿ بَلْدَةً مَّيْتًا ﴾ أي أرضاً مجدبة، لا نماء فيها فجعلها بحيث تربو، وتنتب أنواع النباتات، وصارت تهتز بها، بعدما كانت جامدة هامدة ﴿ كَذَلِكَ الْخُرُوجُ ﴾ أي مثل تلك الحياة البديعة، حياتكم بالبعث من القبور، وفي التعبير عن إخراج النبات بالإحياء، وعن إحياء الموتى بالخروج، تهوينٌ لأمر البعث، وتقريب إلى أفهام البشر.

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيسِ وَثَمُودُ ﴾ .

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ ﴾ أي قبل المشركين ﴿ قَوْمُ نُوحٍ ﴾ شيخ الأنبياء، بدأ به لأنه أطول الأنبياء عمراً وأكثرهم بلاء ﴿ وَأَصْحَابُ الرَّيسِ وَثَمُودُ ﴾ .

﴿ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴾ ﴿١٣﴾ .

﴿ وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ ﴾ أي فرعون وقومه، ليلائم ما قبله وما بعده ﴿ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴾ سَمَّاهم إخوانه لأنه عليه السلام صاهرهم وتزوج منهم .

﴿ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ ﴿١٤﴾ .

﴿ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ﴾ هم ممن بعث إليهم شعيب عليه السلام غير أهل مدين ﴿ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ﴾ هو ملك باليمن أسلم دعا قومه إلى الإسلام ﴿ كُلٌّ ﴾ أي كل واحد منهم ﴿ كَذَّبَ الرُّسُلَ ﴾ فيما أرسل به من الشرائع، أي كل قوم من الأقسام المذكورين، كذبوا رسولهم، وكذبوا جميعهم جميع الرسل ﴿ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴾ أي فحل عليهم وعيدي، وهي كلمة العذاب .

﴿ أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ ﴿١٥﴾ .

﴿ أَفَعِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ ﴾ الهمزة للإنكار، والفاء للعطف على مقدر، كأنه قيل: أقصدنا الخلق الأول فعجزنا عنه، حتى يُتوهم عجزنا عن الإعادة؟ وهذا جواب لقولهم: ﴿ ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴾ أي إذا لم نعجز عن الخلق الأول، فكيف نعجز عن الثاني؟ ﴿ بَلْ هُمْ ﴾ أي قريش ﴿ فِي لَبْسٍ ﴾ وشك وشبهة ﴿ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أي لا ينكرون قدرتنا على الخلق الأول، بل هم في شبهة في خلق مستأنف، لما فيه من مخالفة العادة .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَعَلَّمَهُ مَا تَوَسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ ﴿١٦﴾ .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَعَلَّمَهُ مَا تَوَسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ أي ما تحدّثه به نفسه، وهو ما يخطر بالبال من حديث النفس ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ أي أعلم بحاله ممن كان

أقرب إليه، ﴿مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ والوريدُ: العرق الذي هو مجرى الدم، يجري فيه الدم ويصل إلى القلب، سمي وريداً لأنَّ الروح ترده، وهو المسمَّى بالشريان الوريدي، والآية تمثيل لشدة قرب الله من عبده، وليس هناك اتحاد وحلول، تعالى الله عن ذلك.

﴿إِذْ يَلْقَى الْمُتَلَقِينَ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ (١٧)

﴿إِذْ يَلْقَى الْمُتَلَقِينَ﴾ أي إنه لطيف، يتوصل علمه إلى ما لا شيء أخفى منه، وهو أقرب من الإنسان من كل قريب، وذلك حين يتلقى المَلَكَانِ الحفيظان (١) ما يتلفظ به، وفيه إيذان بأنه غني عن استحفاظ الملكين، فإنه أعلم منهما، ومطلع على ما يخفى عنهما، لكنَّ الحكمة اقتضت ذلك، لعرض صحائفهما يوم يقوم الأَشْهاد ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ في الكلام حذف تقديره: عن اليمين قعيد، وعن الشمال قعيد، فترك أحدهما للدلالة الثاني عليه، وقيل: أراد بالقعيد الملازم الذي لا يبرح، فهو كالظل للإنسان، يلزمه حيث كان.

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (١٨)

﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ﴾ ما يتكلم به من خير أو شر ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ أي مَلَكٌ يَرْقُبُ ما صدر عنه، لما أن كلاً منهما رقيب لما فوض إليه ﴿عَتِيدٌ﴾ أي معدٌّ ومهيئاً لكتابة ما أمر به، يكتبان ما فيه أجر، أو وزر، ويحتمل أن يقال المتلقيان المَلَكَانِ، اللذان يأخذان روحه من ملك الموت، أحدهما

(١) قال مجاهد: وكَّلَ اللهُ بالإنسان - مع علمه بأحواله - ملكين بالليل، وملكين بالنهار، يحفظان عمله، ويكتبان أثره، إلزاماً للحجة، أحدهما عن يمينه يكتب الحسنات، والآخر عن شماله يكتب السيئات، فذلك قوله تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ - اهـ تفسير ابن كثير ٣/ ٣٧٣.

يأخذ أرواح الصالحين، وينقلها إلى دار السرور إلى يوم النشور، والآخر يأخذ أرواح الطالحين، وينقلها إلى الويل والشبور، وعنده ملكان آخران كاتبان لأعماله، ويؤيد ما ذكرنا قوله تعالى: ﴿سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ فالشاهد هو القعيد، والسائق هو المتلقي.

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ (١٩).

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾ أي بحقيقة الأمر، أي بما يؤول إليه أمره، من السعادة والشقاوة، وسكرة الموت: شدته الزاهية للعقل ﴿ذَلِكَ﴾ أي الموت ﴿مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي تميل وتنفر عنه.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ (٢٠).

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ هي النفخة الثانية ﴿ذَلِكَ﴾ أي وقت ذلك النفخ ﴿يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ أي يوم إنجاز الوعيد، وتخصيص الوعيد بالذكر لتحويله.

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ (٢١).

﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ من النفوس البرة والفاجرة ﴿مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ أي معها ملكان أحدهما يسوقها إلى المحشر، والآخر يشهد بعملها، وقال ابن عباس: السائق من الملائكة، والشاهد جوارحه، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُشْهِدُهُمْ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ...﴾ الآية.

﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ (٢٢).

﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا﴾ أي يقال له: لقد كنت أيها الإنسان في غفلة من هذا اليوم العصيب ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ﴾ الغطاء: الحجاب

المغطّي وهو الغفلة، والانهماك في الشهوات، وقصر النظر عليها ﴿فَبَصْرُكَ
الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي فبصرك اليوم قوي نافذ، لزوال المانع.

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي ۗ ﴾ (٢٣)

﴿ وَقَالَ قَرِينُهُ ﴾ الجمهور على أنه المَلَك الكاتب الموكل به ﴿ هَذَا مَا
لَدَىٰ ﴾ قال الملك الموكل به، مشيراً إلى كتاب عمله: هذا مكتوب عندي
﴿ عَيْنِي ﴾ أي مهياً للعرض.

﴿ أَلْقِيَٰ فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ۗ ﴾ (٢٤)

﴿ أَلْقِيَٰ فِي جَهَنَّمَ ﴾ خطاب من الله تعالى للسائق والشهيد، أو للملكين من
خزنة النار، ﴿ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ أي كل كافر معاند للحق.

﴿ مَنَاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيْبٍ ۗ ﴾ (٢٥)

﴿ مَنَاعٍ لِّلْخَيْرِ ﴾ كثير المنع للمال عن حقوقه المفروضة، أو مناع لجنس
الخير أن يصل إلى أهله، والمراد بالخير: الإسلام الذي هو خير محض،
كأنه قال: كفر بالله ولم يقنع بكفره حتى منع الخير عن الغير. قيل: إن
الآية نزلت في الوليد بن المغيرة ﴿ مُعْتَدٍ ﴾ ظالم، غشوم ﴿ مُّرِيْبٍ ﴾ شاك في
الله، وفي دينه ويوقع الغير في الريب بإلقاء الشبهة.

﴿ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ۗ ﴾ (٢٦)

﴿ الَّذِي ﴾ بدل من كل كفار ﴿ جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴾
تكرير للتوكيد.

﴿ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ (٢٧)

﴿ قَالَ قَرِينُهُ ﴾ أي الشيطان المقيّض له، فكأن الكافر قال: رب هو أطغاني، فقال قرينه ﴿ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ ﴾ أي ما كان ابتداء الإضلال مني، لكنه طغى واختار الضلالة على الهدى ﴿ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴾ أي ضلال بعيد عن الحق، فأعنته عليه بالإغواء، من غير قسر وإلجاء.

﴿ قَالَ لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴾ (٢٨)

﴿ قَالَ ﴾ الله تعالى ﴿ لَا تَخْصِمُوا لَدَيَّ ﴾ أي في موقف المحاسبة، إذ لا فائدة في ذلك ﴿ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ ﴾ أي سبق أن أذرتكم على الطغيان، فلا تطمعوا في الخلاص اليوم.

﴿ مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ (٢٩)

﴿ مَا يَبْدُلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ ﴾ أي ما يبدل حكمي، ولا يغيّر كلامي، بعقاب أهل الكفر والإجرام ﴿ وَمَا أَنَا بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ أي وما أنا بمعذب للعبيد بغير ذنب من قبلهم.

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ (٣٠)

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ ﴾ سؤال وجواب جيء بهما على منهاج التمثيل، لتحويل أمرها، والمعنى: إنها مع اتساعها، وتباعد أقطارها، يُطرح فيها من الإنس والجن حتى تمتلئ ﴿ هَلِ امْتَلَأَتْ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾ لغنيظها على العصاة تطلب زيادتهم، وهذا الكلام ربما يقع قبل إدخال الكل، ويمكن أن يكون الأمر على الحقيقة، بأن يخلق الله للنار قدرة على الكلام، ويسألها فتجيب، والله على كل شيء قدير.

﴿ وَأَزْلَفْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ ﴿٣١﴾ .

﴿ وَأَزْلَفْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ شروع في بيان حال المؤمنين، أي قُرُبَتْ للمتقين، بحيث يشاهدونها من الموقف، فيبتهجون بأنهم محشورون إليها، ﴿ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أي مكاناً غير بعيد.

﴿ هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴾ ﴿٣٢﴾ .

﴿ هَذَا ﴾ إشارة إلى الجنة أي مقولاً لهم ﴿ هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ ﴾ أي رجاء إلى الله تعالى ﴿ حَفِيظٍ ﴾ أي حافظ لما استودعه الله من حقوقه.

﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ ﴿٣٣﴾ .

﴿ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴾ وصف القلب بالإناابة، لما أن العبرة برجوعه إلى الله تعالى خالصاً، أي جاء بقلب طيب سليم، خالص من شوائب الضلال والإشراك.

﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾ ﴿٣٤﴾ .

﴿ ادْخُلُوهَا ﴾ أي يقال لهم ادخلوها ﴿ بِسَلَامٍ ﴾ أي بسلامة من العذاب والهموم والأكدار ﴿ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴾ أي ذلك هو البقاء الدائم في الجنة، الذي لا انتهاء له، لأنه لا موت في الجنة ولا فناء.

﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ ﴿٣٥﴾ .

﴿ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا ﴾ أي لهم في الجنة من كل ما تشتهيهم أنفسهم كائناً ما كان ﴿ وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ وهو ما لا يخطر ببالهم، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ

مِنْ مَحِيصٍ ﴿٣٦﴾ .

﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ ﴾ أي قبل كفار قريش ﴿ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا ﴾

أي قوة كعاد وأضرابها ﴿ فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ ﴾ أي تفرقوا في البلاد، وجالوا في أكنافها ﴿ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ ﴾ أي هل من مهرب من الموت؟ أي لم يجدوا محيصاً، بل ماتوا وصاروا إلى أمر الله .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ

شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ .

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ ﴾ أي فيما ذكر في السورة ﴿ لَذِكْرَى ﴾ أي تذكرة

وموعظة ﴿ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ أي قلب سليم يدرك كنه ما يشاهده من الأمور، ويتفكر فيها، فيعلم أن مدار دمارهم هو الكفر، فيرتدع عنه ﴿ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ ﴾ أي إلى ما يتلى عليه ليقف على جلية الأمر ﴿ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ أي حاضر الفكر والقلب، لأن من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا

مِنْ لُغُوبٍ ﴿٣٨﴾ .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا ﴾ أي

خلقناهما مع عظمتها في مقدار ستة أيام وما أصابنا ﴿ مِنْ لُغُوبٍ ﴾ أي من إعياء ولا تعب، وهذا رد على جهلة اليهود في زعمهم أنه تعالى بدأ خلق العالم يوم الأحد، وفرغ منه يوم الجمعة، واستراح يوم السبت، واستلقى على ظهره على العرش، فهو يوم استراحة الرب، فكذبهم الله تعالى .

﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ
الْغُرُوبِ ﴿٣٦﴾ ۝ .

﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ أي ما يقوله المشركون في شأن البعث، من الإنكار والاستبعاد، فإن من فعل هذه الأفاعيل قادر على بعثهم، والانتقام منهم ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أي نزهه تعالى عن العجز، حامداً له تعالى على ما أنعم به عليك من النبوة والهداية ﴿ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴾ الفجر ﴿ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴾ العصر، والظهر.

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَرَ الشُّجُودِ ﴿٤١﴾ ۝ .

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ ﴾ العشاءان والتهجد، وقيل: أراد بالتسبيح الصلاة ﴿ وَأَدْبَرَ الشُّجُودِ ﴾ النوافل، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «من سَبَّحَ الله في دُبُرِ كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، وحمد الله ثلاثاً وثلاثين، وكَبَّرَ الله ثلاثاً وثلاثين، ثم قال تمام المائة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، غفرت ذنوبه، وإن كانت مثل زبد البحر»^(١).

﴿ وَأَسْمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ ۝ .

﴿ وَأَسْمِعْ ﴾ أي لما يوحى إليك، من أحوال القيامة، وفيه تهويلٌ لأمر المخبر به ﴿ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ ﴾ أي إسرافيل عليه السلام، فيقول: أيتها العظام البالية، واللحوم المتمزقة، إن الله يأمركنَّ أن تجتمعن لفصل القضاء ﴿ مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ بحيث يصل نداؤه إلى الكل.

(١) الحديث أخرجه مسلم رقم ٥٩٧.

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ ﴿٤٢﴾ .

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ﴾ وهي النفخة الثانية ﴿بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ أي يوم يسمعون الصيحة، ملتبسة بالحق الذي هو البعث، يخرجون من القبور.

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ ﴿٤٣﴾ .

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ أي يحيي الخلائق ونميتهم في الدنيا، من غير أن يشاركنا في ذلك أحد ﴿وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ للجزاء في الآخرة.

﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ ﴿٤٤﴾ .

﴿يَوْمَ تَشَقُّقُ الْأَرْضُ﴾ أي تتصدع الأرض فتخرج الموتى من قبورهم ﴿عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ مسرعين جمع سريع، كالكرام جمع كريم ﴿ذَلِكَ حَشْرٌ﴾ أي بعث وجمع ﴿عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ أي هين.

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ ﴿٤٥﴾ .

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ من نفي البعث، وتكذيب الآيات، وغير ذلك مما لا خير فيه ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ أي بمتسلط تقسرهم على الإيمان، وإنما أنت مذكر ﴿فَذَكَرَ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ أي فعظ بهذا القرآن وخوف من يخاف وعيدي، وأما من عداهم فنحن نفعل بهم ما توجهه أعمالهم من فنون العذاب. والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة ق»
